THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

UAR. 2885. Um 'Isām

Dhakir yā tarā.

ذكرى يا ترى؟
أم عصام

ذكرياتي

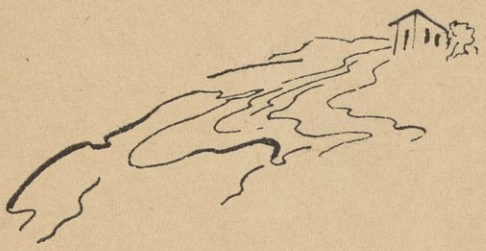

بقلم

أم عصام

893.7N179
P5

منشورات

دار الثقافة بدمشق

الى روحي ...

روحي القلقة الحيرى ..

التي تظل تبحث بين طيات العواطف .. والمشاعر الزاخرة عن

صدى ما يزيّن الحياة والايام ..

تبحث عن الحب وعبيره ..

عن الحرمان وقسوته ..

عن الوحدة ومرارتها ..

عن الاخلاص .. والتفاني .. والسمو ..

اليك يا روحي أهدي كتابي هذا ..

أم عصام

خديجة الجراح النشواتي

DEC 16 1964

لم تعد عيناه تعطّر لقاءهما ..

لأنه عاجز عن اعطائها حبّاً .. خالصاً ..

لأن آراءه سكبت الجمود في أعماقها ..

كانت متعطشة الى كلمة ..

كلمة واحدة تسكبها شفتاه في أذنها .. بصدق !! ..

كانت تتمنّاها قصة شوق ..

قصة ترضي أنوثتها ! .

لكن آراءه .. جعلت الابتسام يشحب على وجهها ..

وقد أحست بتفاهتها ..

أحست بخيبتها .. وبمرارتها ..

تجرعت عبراتها وأخفتها وراءعينين أخذتا تعاتب زوايا غرفتهما !

أغلقت نفسها على آلامها وهي تودعه بنظرة أخيرة .

ستنساه ! ..

يجب أن تنساه .. ولكن كيف ؟ ..

عرفته منذ زمن بعيد ..

عرفته شاباً جميلا .. أنيقاً .. يترك في نفس أية فتاة حلماً يتراقص عذباً .. ولحناً يتراقص طرباً ..

صادفته في أحد النوادي .. في أمسية شتاء باك ..

دخل « عامر » المكان مع صديق له .. وقد ارتدى معطفاً يقيه برد الشتاء وأمطاره ، رافعاً ياقة معطفه حتى أعلى الرقبة .

وكان الشتاء شاملا الدنيا بكآبته وأمطاره التي تتساقط في الطرقات غزيرة .. فيسمع لها صوت يألفه السمع بعد قليل .. وتستسيفه النفس التعبة القانطة ، التي تجد فيه سيمفونيتها الخالدة .

دخل « عامر » معتزاً بنفسه .. كأن الايام قد أكسبته ثقة بجماله .. ومكانته في القلوب .

وكانت نظرة سريعة ، بينه وبين « سمر » استشعرت فيهاخوفاً لا تدري مصدره .

كفّ المطر ..

وغدت الدنيا أكثر راحة بعدما بكت طويلا .. إذ غسلت ببكائها ما ترسب في الاعماق .. من آلام .. وتوبة .. وندم ..

طلبت سمر من أخيها مغادرة المكان ..

لقد ضايقها هواء النادي .. وثقل على صدرها .. واحال أنفاسها الى العدم .

وخرجا ..

نفذت لسعات الهواء الباردة الى جسدها .. وارتعشت ..

لقد حالف ارتعاشها بعض الحيرة ..

لمَ بحثت عنها عينا « عامر » متسائلة عن سبب ذهابها ؟ ..

وعادت « سمر » الى بيتها ، وهي تطوي في حناياها خوفا .. ورعدة .. من شيء مبهم ..

انها وحيدة .. والوحدة قاتلة ..

فبمن تستعين ؟ ..

وعلى أي صدر ترتمي ؟ .. لتلفظ ما يعتمل في باطنها من انفعالات .. وقلق ؟ ! ..

لا أم .. لا أب .. لا أخت .. لا صديقة ..

ولو وجد أحدهم فهل تلتجيء اليه ؟ .. وهي التي تعودت منذ صغرها ألا تلتجيء الى أحد ؟ ..

وهو ؟ ! ..

« عامر » !! من خافت الالتقاء به وهربت ..

إنه رجل ؟ .. غادر ؟ .. قاسٍ ككل الرجال ..

هذه حدود معرفتها بهم ..

* * *

مر الشتاء ثقيلاً ..

ثقيلا على وحدتها وقلقها ..

وجاء الصيف ..

حين خرجت « سمر » من عزلتها .. وقد تناست انها كانت انسانة الليل والشتاء والضجر .. وقد بدأ القدر يرفع ستر الظلام عن عينيها ..

أخذ يداعبها اشراق الحياة .. وجمالها .. في مشاعر جديدة بدأت تحيط بها ..

مشاعر .. فيها همس أنغام سماوية ، توحي بأن في الحياة جمالا وعذوبة وألحانا حلوة تنسكب في الاذن .. وليست كلها نقمة وخداعاً ..

غفت عن حوادثها ووحدتها ..

إذ أصبحت تتوق للمجهول ..

تتوق لرؤية عواطفها تثور لأي شيء ! .. لأية رغبة ! .. لأي حنان ! .. لأي ألم ..

ترى ماذا ينتظرها ؟ ..

إنه يوم « اثنين » ..

وقد جاءت صديقتها « سهام » لتصحبها الى احدى الحفلات ..

وذهبت معها ..

ذهبت وهي تطوي شيئاً من التردد في أغوار نفسها ..

وجلست « سمر » في الحفل صامتة .. تحجبها عن النـاس نظّارتان سوداوان ..

وتحرك القدر مرة ثانية .. ليرمي شباكه حولها .. فجمعها به للمرة الثانية ..

إنه هنا !! .. قريباً منها ! ..

انه « عامر » ذلك الانسان الذي صارت تعتبر رؤيته خطراً عليها..

واتجهت عينا « عامر » نحو ذلك الوجه الهادىء الذي يحيطه الغموض خلف نظارتين سوداوين . ويبدو ان جعبته كانت فارغة .. فوجدها ..

وجدها متعة جديدة .. لا بأس بها ..

حتماً !! لقد نسي من هي ؟ .. ونسي ذلك اللقاء العابر الذي تذكره هي .. في النادي .. في الشتاء الماضي ..

اعتدل « عامر » في جلسته مصوباً نظرته الى سمر ..

وقد كان لدقائق يشمله الملل ؟ .. حين لا حظته يهز رجليه في حركة منتظمة .. فيها كل معاني السأم والضجر ..

ثم هدأت حركة رجليه عندما وجد ما يسليه ويدفع عنه الملل ..

راحت « سمر » ترقبه وتتأمل أناقته في « بذلة » سوداء ، وربطة عنق مخططة باللون الاحمر والاسود .. وحذاء اسود لامع.. والسيجارة قد عانقتها أصابعه عناق رجل لا يدخن ..

وشملها سرور وخوف ..

سرور لرؤيته وملاحظته خلف نظارتيها .. وخوف منه ان استمر في النظر اليها .

* * *

زحفت أثواب الظلمة تنتشر في المكان ..

وكان عليها أن تقلع نظارتيها والا أُصيبت بالسخرية من الجميع .. وخلعتهما ..

حين بانت له عيناها السوداوان الاقسى من الليل .. فيهما رفة .. فيهما اضطراب .. فيهما شيء من التعبير عن اعجاب .. وبدء عاطفة كانت غافية ..

واعتراه الزهو .. لما حاز عندها من الاعجاب والاهتمام ..

تقصّد « عامر » الاقتراب من مكانها .. وبدّل مكانه .. واقترب.

لقد كانت حركاته وسكناته تدل على انشغاله بها .. بها لوحدها.

لم تفه « سمر » بكلمة .. حتى لصديقتها التي كانت تجاورها .

ليتها لم تأت ؟ ..

أما استشعرت شيئاً جديداً في حياتها ، منذ اشراقة الصباح .

لقد دخلت الحفل مطمئنة .. وخرجت منه خاسرة ..

خسرت قلبها الذي أخذ يرف .. كورقة في مهب الريح ..

وعجبت من نفسها ؟ ! ..

أبهذه السهولة قد أحبّت .. ومنذ النظرة الاولى ..

لقد كانت تعتقد أن قلبها قلعة حصينة .. فاذا بأحجارها تنهار امام نظراته الواحد تلو الآخر ..

لقد كانت تهزأ من الحب .. وها هي قد أحبّت ..

أحبت من النظرة الاولى المصوبة .. أم كان الخطر يرسب في الاعجاب منذ زمن بعيد ..

وعادت « سمر » الى بيتها ...

دلفت حائرة .. ضائعة .. تتساءل عمّا تخبئه لها الايام مع « عامر » ! ..

ثم تمددت على سريرها .. ماذا أصابها ؟ ! ..

ولمع ضوء أمام عينيها .. في الظلمة ..

انه خاتم الزواج في يد « عامر » ! ولمع ذلك الخاتم كثيراً ، واشتد وميضه أمام عينيها اللتين حجبتهما أصابع مرتعشة ..

وهتفت :

أينزف الشجن من قلبي.. والكآبة ترعاه .. والصعاب تعترضه؟

وضمّت الوسادة بين يديها تمرغ وجهها فيها .. وهي تحس برغبة شديدة في البكاء .

وأخيراً .. داعبها الكرى وهي تحتضن خلف أجفانها طيفاً حبيباً رغم آلامها .. وأراحها النوم من عذابها هذا .. حين طافت بها الاحلام طوال الليل مع « عامر » ..

مع عينيه المصوبتين اليها .. فيهما وله .. وفيهما حب ..

* * *

نهضت « سمر » مع صباح اليوم الثاني متعبة ، متداعية . وقد قررت الا تذهب الى الحفل في يومه الثاني .. لئلا ترى « عامراً » .

لقد أصبحت تخاف الالتقاء به‌مرة ثانية.. بعدما لمست ضعفها..

وقاومت رغبة جامحة في الذهاب .. وصمدت .

وجاء اليوم الثالث ..

تريد أن تراه بأي ثمن .. لن تستطيع الصمود أكثر !! ..

ذهبت « سمر » مع أخيها الذي انتقى ركناً قصياً ..

انه بعيد عن « عامر » .. الذي رأته بين مئات البشر ..

تركت أخاها مدعية أنها رأت صديقة لها .. تود تحيتها ..

بحثت عن مكان قريب منه .. وجلست وحيدة .

وقد التفت « عامر » كعادته يبحث عن فتاة تدفع عنه السأم والملل .. ورآها ! ..

كانت نظرته اليها غريبة !!

فيها التجاهل .. وفيها التساؤل ..

تجاهلها لاعتقاده بأنه أمضى أمسية مسلية معها وكفى ؟ ..

والتساؤل لانه رآها لوحدها ، فما معنى وحدتها؟.. وقريبة منه؟

أما « سمر » فقد تجاهلت معنى التجاهل في نظرته ، ولو أنها أحست بخيبة مريرة ..

ثم ألحت عيناها في النظر اليه ..

عاد « عامر » يبادلها الاهتمام بعد صراع قام بينه وبين نفسه ؟ بين التسلية معها أو تجاهلها ..

ويبدو أن الملل قد عاوده .. وعاد يفكر فيها ..

ربما لانه لم يجد غيرها تبادله النظر ! ..

واسترعى انتباه « سمر » الحظ الذي خلفه خاتم الزواج على أصبعه .. لقد كانت خالية منه ! .

وتساءلت :

هل فكر بي ؟ ..

تقصد « عامر » محادثة جاره كثيراً ، لينظر اليها من جانب عينيه تلك النظرة الجريئة التي أوقعتها في شباك حبه الذي يبدو لها متعباً ، ولو أنها لم تعرفه بعد .

ونسيت أخاها ومن حولها ..

لقد عاشت لحظاتها تلك ضمن نطاق دائرة واحدة مركزها هو .. هو وحده ..

وكان معها .. في تلك الدائرة التي ظنت أنه حددها لها أيضا ..

ثم وهبها هزة من رأسه .. وبسمة من فمه تعبر عن تفاهمهما ..

إذ أحست « سمر » بروحها تشد اليه بحبال متينة .

حبال أقوى من تفكيرها واردتها .. تشدها الى حبه . . الى التضحية في سبيله في كل ما يريد ..

أسرع « عامر » يقف أمامها حين انتهى الحفل ..

ينتظر انتهاء عزف النشيد الجمهوري .. لئلا تغيب عنه بين تلك الجموع الغفيرة الخارجة ..

وخفق قلبها شديداً ! ..

إنها ضربات قوية سمعتها حتى أذنيها .. ودارت الدنيا بها .. لاتقوى على الوقوف ..

أسندت « سمر » يديها على المقعد تستعين به خوفا من السقوط

وانتهى النشيد ، وسار « عامر » أمامها .. وسارت وراءه ..

سارت بخطوات واهية .. كأن سلسلة قد قيدت المسافة التي تفصل قدميها عن بعضهما ..

سلسلة قد شبك حلقاتها « عامر » بيديه .

سارت « سمر » .. تنتظر كلمة من فمه .. كلمة يقيدها بها الى الابد .

ـ أين « سهام » ؟ .. لمَ لم تأتِ ؟ ! ..

قالها « عامر » وهو يلقي على « سمر » نظرة فاحصة .

تعثر الجواب في فمها .. يبدو أن اهتمامه كان لسهام في المرة الماضية .. وليس لها ؟ ! ..

أجابته بصوت تقطر الخيبة من مقاطعه :

ـ لا أدري .. انها مشغولة ..

قال :

ـ هل تستطيعين الذهاب معي الآن ؟ ..

وغمغمت أعماقها :

يا للتناقض ! .. ويا للسرعة ! ..

ثم قالت :

ـ لا أستطيع .. ان أخي في انتظاري ..

ـ ما هو رقم هاتفك لاتصل بك غداً ..

ـ سأتصل أنا بك ..

ـ سأنتظرك الساعة الثانية عشر .. اعملي حسابك الساعة السادسة مساء .. يجب أن أراك .. نزهة في السيارة ..

اجابته بإيماءة موافقة وصمت عميق ..

ثم حياها وغاب .. وابتلعته الجموع الخارجة ..

تريثت « سمر » في الحديقة تنتظر أخاها الذي أتى متسائلا :

ـ أين كنت طوال تلك المدة ؟ ..

ـ مع صديقتي ..

وسارا الى البيت ..

لقد مرت الحوادث بسرعة لم تكن تنتظرها « سمر » .. ثم غفت مع أحلامها وأفكارها المشوشة .

وضمها النوم والليل ..

النوم الذي طاف بها الدنيا مع « عامر » .. اذ كانت تجد نفسها بين لجج الحيرة واليأس تستنجد .. وتارة على شاطىء حالم تبتسم .. تارة في رياض واسعة هفافة تسير مع « عامر » كالفراشة بين الزهور .. وتارة مرمية على الاعشاب الشائكة .. تنتحب وهي تتحسس دماءً تنزف منها .. تناديه ولا تجده ..

* * *

امتدت أصابع الصباح تداعب أجفان « سمر » وتمسح عنها عذاب ليلها وأحلامها .. تدغد عنها بإشراق أخذ يزحف رويدا رويدا الى أعماقها .. ونهضت مع خيوط الشمس المتسللة عبر الستائر المسدولة .

نهضت لاول مرة مع الامل .. والحب .. والقلق ..

وزحفت الساعة الى الثانية عشر ..

لقد اشتدّ أنين قلبها .. وسرت البرودة الى أطرافها .. وشلت الحركة من قدميها ، لتسير الى الهاتف تطلبه حسب الموعد .

تجالدت .. وتماسكت ..

حين لعبت أصابعها بأرقامه الحبيبة تحملها لهفتها وحبها ..

وأجابها صوت يحاكي نغمة الناي رقةً .. وصدى وادٍ عميق..

غابت « سمر » مع وقع كلماته في أعطافها .. غابت مع تلك العاطفة التي صبها صوتـه في أذنها .. كأن الحب بينهما وليـد سنوات ..

ـ هل أستطيع رؤيتك الآن ؟ ..

ـ الآن ؟ .. لا أستطيع .. في السادسة مساء أفضل ..

ـ إذاً .. أنتظر منك مخابرة في السادسة والنصف .

ـ الى اللقاء يا « عامر » ..

ـ الى اللقاء يا ...

انسكب في أذنه صدى ضحكتها .. لأنه لا يعرف اسمها بعد !. لا يعرف حتى من هي ؟ ..

وجاء المساء ..

وانتظرت « سمر » موعدها معه ..

كأن نصف يوم يمرّ في انتظاره عمر كامل من البعد والفراق ..

تركزت عيناها على الساعة تستحثّها على المضيّ الى الوقت المحدّد ..

غرست « سمر » أصابعها تداعب الارقام .. لتنبت قصة غرام.. قصة كتبها لها القدر .. غرستها في الساعة السادسة والنصف تماماً ..

وجاءها الصوت الحالم الذي تغلّفه حرارة الانتظار ..

ـ أهلاً وسهلا .. أهلين وسهلين ..

ـ بكم يا « عامر » .

ـ لقد تأخرت .. انتظرتك منذ نصف ساعة ..

ـ لمَ ؟ .. أليس موعدنا في الساعة السادسة والنصف ؟ ..

ـ لقد عذّبني الصبر نصف ساعة .. والآن .. أأنت على استعداد ؟ ! ..

ـ نعم ..

ـ ما رأيك في أن نجتمع في منزلي بدل الذهاب في سيارة لئلا يرانا أحد ؟ ..

ـ كما تريد ..

قالتها « سمر » دون أن تفكر ، لقد فوجئت بطلبه هذا الذي لم تكن تنتظره لتكهنها بوجود زوجته في البيت .. وتكلم «عامر» شارحاً لها أين يقع منزله .. وأنّه في انتظارها أمامه ..

واحتواها الدرب ..

دربه الذي أصبح أليفاً لها .. لأول مرة ..

لمحته عن بُعد .. بيده ورقة .. وأمامه رجل يتكلم .. وسيارة تقبع في داخلها فتاة ..

لمحها « عامر » تتهادى بخطوات واجفة ..

ودخل الرجل السيارة مودعاً عامراً ، ثم دلفت السيارة في الطريق مارة بجانبها وتساءلت سمر :

ـ أيعلم ذلك المجهول ، والفتاة التي هي الى جانبه أنني آتية لزيارة من كان يكلّمه ؟ ..

يا للاقدار !! ..

ماذا فعلت بي ؟ وكيف سيرّتني ؟ ..

ازاحت « سمر » أفكارها وهواجسها جانباً وسارت ..

وابتلعتها بضع درجات هبطتها لتجد الباب يفتح فتحة صغيرة.. علامة انتظاره لها وراءه ..

ودخلت ..

خطت أولى خطواتها .. في منزله ..

همس :

ـ أهلاً وسهلاً ..

حين نفذت رائحة « السواردوباري » الى أنفها .. والتي اختلطت بما تعطّرت به « مي وي » .. أهذه العطور لاستقبالها ؟ ..

إذاً .. انه ينتظر قدومها بلهفة ! ..

لعبت يده بالمفتاح وهي تقفل الباب عدة مرات .. تاركة سلسلة المفتاح متدلية تسجل اهتزازات تخدش ذلك الصمت الذي يهيمن على البيت ..

واستدار مرحباً بها .. وصدى خطواتها يتهادى في صالون طويل تتوسطه طاولة ، وعدة مقاعد حديثة العهد .. انها غرفة الطعام .. وفي آخر الصالون دخلت « سمر » غرفة أخرى فيها « فوتويات » بلون النبيذ .. حديثة العهد أيضاً ..

ان هذا دليل زواجه القريب ..

قال :

ـ أعتذر عن عدم تمكني من تنظيف البيت لاني وحيد منذ عدة أشهر .. فقد تركتني زوجتي ..

إذاً هو على خصام مع زوجته ؟ ..

ارتمت « سمر » على مقعد من مقاعد الغرفة .. وارتمى «عامر» أمامها على المقعد الثاني ..

قال :

ـ ما رأيك في أن ندخل الغرفة الداخلية ؟ . لئلا يسمع صوتنا أحد ؟ ..

تبعته صاغرة ..

ومرت في ممر صغير فيه مغسلة وعدة أبواب ..

حين لعبت أصابع « عامر » بأزرار كهربائية .. فهمت منها أنه يقطع التيار الكهربائي ..

فتح « عامر » أحد الابواب ودخل الغرفة .. وتبعته ..

بعد أن أدار قفل الباب الثاني والثالث ..

وبان لعينيها سريران بينهما ربضت « كومودينا » عليها ضوء صغير ..

وفي الجانب الآخر انزوت مرآة كبيرة مع خزانة التواليت ..

وانعكس اللون النبيذي على وجه « سمر » .. لون الستائر ..

وجالت عيناها في تلك الغرفة وراء ثلاثة أبواب مقفولة .. وحارت أين تجلس ؟ ..

جلست بعد تردد لم يدم طويلاً .. على طرف سرير ..

فاقترب منها وجلس بجانبها .. جلس والابتسامة تشرق على وجهـه ..

وطارت الاحرف من الشفاه لفترة .. طارت ترسم خيالات « لسمر » .. حين مدّ « عامر » يده يحيط كتفيها .. مؤهلاً .. مبتسماً تلك البسمة المشرقة التي تكشف عن أسنانٍ جميلة براقة ..

وسرت الرعدة في أوصالها ! .

وغلف كيانها شيء من الخوف ..

ولمَ الخوف ؟ .. هي التي جاءت بملء ارادتها ..

استجمعت « سمر » شتات شجاعتها :

ـ ماذا تقول عني وعن تساهلي ؟ .. من النظرة الاولى آتيك راضية الى بيتك ؟ ..

ـ لقد لمست الدعوة في عينيك .

ـ أما كانت في عينيك أيضاً ؟ ..

ـ بلى .. ولكن لو لم المسها في عينيك .. ما دعوتك ..

حزّ في أعماقها جوابه !! ..

لكنه على حق ! . أما استسلمت له عيناها .. وأخذتا تلحّان في التعبير كثيراً عمّا يجول وراءهما .. يوم الحفل !!.

استكان جسدها ليده التي أحاطت كتفها .. وأحست بدفء جسمه .. وحنانه يسري اليها .. حين أزهر الحب في عينيه .. وحبت شفتاه تبحث متعطشة لفمها ..

أطبقت « سمر » أجفانها على وجه حبيبٍ .. غالٍ ..

وجه أخذ يرتعش بكل جارحة فيه ..

ثم غابت مع أنفاسه اللاهبة .. مع همساته المسكرة التي سرت لأغوارها حارة دافئة .. غابت مع ذلك الغالي الذي أصبح أغلى من حياتها .. ووجودها ..

وحين أنذرتها الساعة بأنها تسير .. سمعته يتكلم بصوت عميق النبرات ..

تكلم عن حاله .. عن مدينته .. عن طفولته ونشأته .. عن والده وحكمه السديدة .. عن والدته وآرائها القويمة في الحياة عن حبه لهما ..

ثم تكلم عن مأساة زواجه ..

لقد رافقت كلماته الصراحة التامة .. وكان لها أجمل الوقع في قلبها ..

إنه صريح معها .. يفتح لها مصاريع قلبه .. ويطلعها على مافيه .. فلمَ تخافه ؟ .. لمَ لاتأتمنه على قلبها ؟ .. وهي التي قدّمته إليه هدية سهلة ..

سألها « عامر » عن رقم هاتفها .. ثم قال :

ـ يجب أن نجتمع كثيراً .. فقد بقي لي في أجرة هذا البيت عدة اسابيع فقط ..

جال في أعماق « سمر » سؤال لم تستطع التلفظ به ...

كانت تودّ أن تقول له :

ـ وبعد الـ « عدة أسابيع » أتراه يكتفي من حبي بتلك المدة القليلة ؟ ..

وصمتت مع ألم أحاط شغاف قلبها .. صمتت تستمع اليه ولا تجيب ..

وصمتت مع حب في قلبها يخالطه الالم ..

لم يهتم بحياتها ؟ .. لم يسألها عن آمالها .. عن أي شيء .. سوى السؤال عن اسمها فقط ..

لقد تناسى تلك الاسئلة .. وبقيت علاقته معها ضمن تلك الدقائق التي جمعتهما ..

همست له بسؤال :

ـ أتحبني ؟ ..

ـ طبعاً أحبك .. ولو لم أحبك لما أتيت مرة ثانية الى الحفل .. وقد كان باستطاعتي التخلف عن المجيء بعد رؤيتك في المرة الاولى ..

ـ وأنا .. هل تثق في حبي لك وتعرف مداه ؟ ..

ـ طبيعي .. يا « سمر » الحب يقاس بالتضحية .. ومجيئك هذا خير دليل على ذلك ..

شمل الفرح عينيها وحبا الى فمها ..

نظرت إليه بعينين فيهما .. عبادة .. وفيهما صلاة ..

فيهما حب قوي جارف ..

وقد خاف من نظرتها تلك .. حين امتدت يده مداعبة اجفانها ..

قال :

ـ نظرتك فظيعة .. لا تنظري الي هكذا ..

ـ إنّه حبي .. الذي يعكس لك نظرتي هذه انها لك وليست لأي انسان .. « عامر » ! أنت الوحيد في حياتي الضائعة قبلك .. وسأبقى على عهدي مهما طال الزمان ، ومهما كان موقفك مني ..

صمت « عامر » ..

صمت متجاهلاً عهدها ..

قالت :

ـ قل لي يا « عامر » عمّا يمكن أن يهدم حبنا لأتجنّبه !؟ لا أريد أن أخسرك .. لقد غدوت لي كل شيء ..

يبدو أن « سمر » قد تعجلت السؤال من المرة الاولى .. لانها رأت ملامح مشاعر غريبة اعترته ..

صمت لفترة يفكر .. ثم قال :

ـ أوصيك بالكتمان من أجل زوجتي .. أما عمر حبنا .. فهذا شيء لا نستطيع أن نحدّده .. بل نتركه للزمن .. فكري معي فقط في السعادة الحالية التي نسرقها من الزمن .. سرقة .. فكري معي بأن في نهاية العمر موتاً .. ولا من يعلم متى تكون نهايته ؟ ..

صدمت « سمر » من أجوبته .. وأفكاره .. لكن شيئاً في أعماقها عرفت مداه .. وعرفت واثقة انه الحب .. مهما كان .. ومهما كانت أجوبته وآراؤه ..

أجابت :

بعديعنك يا « عامر » هو الموت لي .. فأهلاً به إن لم أعدأراك ..

وتجاهل نبل جوابها الذي دلّه على مدى تعلقها به .. تجاهل وعودها وإخلاصها ..

تجاهل لئلا يقطع على نفسه عهداً بالوفاء ! !

الوفاء لحب عرفت « سمر » مداه من المرة الاولى ..

إنها تحبه للحب فقط .. وليس لأية غاية .

وودعته بعد أن وعدها بأن يتصل بها بعد يومين ليجتمعا ثانية ..

* * *

عادت « سمر » ..

عادت فتاة أخرى تختلف تماماً عن فتاة الأمس ..

وفتاة الامس تختلف عن الفتاة التي كانت لا تعرف «عامراً» بعد..

لقد كانت البارحة فتاة على أبواب حب جديد .. وفجر جديد.. بعد حياتها الماضية القاحلة من كل حنان أو أمل ..

لقد كانت تحلم .. أما اليوم فهي تعيش على الحقيقة .. كانت في بيته .. وراته قريباً منها .. واسكرتها همساته ومقاطع صوته العذب الرقيق الذي انسكب في سمعها .. وأحالها الى ملاك يطوف السحاب بين يديه ..

هل تنسى الخدر الذي تمشى في أعصابها ؟ .. وأحالها الى كتلة مشتعلة بين مطاوي ذراعيه ؟ .

هل تنسى الحروف العذبة التي انفلتت من فمه مرتعشة .. مرددة .. « حبيبتي » ..

مع حبها تدرك أنه ليس لها .. هو لسواها ..

لقد شلّت أمانيها عند حبها له فقط .. عند القناعة برؤيته .. وسماع صوته .. ولن تطمح في العيش معه .. طالما هو متزوج .. وهانىء ! ..

هل تتمنى له سوى السكينة والراحة مع أنها ارتضت لنفسها كل العذاب في سبيله ، طالما ارتضاه لها ! ..

ومرّ اليوم التالي بسمر كأنها ثملة من ذكرى الامس الريّان .. وذكرته ..

ذكرته حين ارتمت على الافق الوان الفراق .. التي ملأت جوانحها حنيناً اليه ..

فقد كان يومها بعيداً عنه كالخريف الشاحب ..

كقيثارة بلا أوتار ..

اتخاف الخريف بعدالآن ؟.. وهي التي كانت ايامها شتاء باكياً .. قاتماً منذ الصغر لقد كان اليأس توأم نفسها .. وهو ..

هو .. « عامر » الذي فصل لها هذا التوأم .. وقضى عليه .. وجعل لحياتها معنى وهدفاً ..

وأعاد اليها الحياة والامل والإشراق ..

وتمزق المساء ..

واحتضنها الليل ..

الليل الذي بدأت مواعيدها معه كل ليلة .. لانه يحمل لها صدى همسات عامر البعيد عنها ..

ويحمل لها أحلى أمانيها التي تفتحت البارحة بين ذراعي «عامر» ..

ما قيمة الحياة بدون حب ؟ .

حب أيّ شيء ! ..

كيف كانت تسمى إنساناً ؟. وهي ناقمة على البشرية جمعاء ..

ما قيمة وجودها قبل أن تحب عامراً ؟! ..

لقد أحبّت الكون بحبه .. أحبّت بيتها .. وسريرها .. وأخاها

أحبت الليل والنهار ..

أحبّت الطيور والهوام ..

احبّت كل نبتة ووردة .. أحبت حتى نفسها لانها أصبحت شيئاً لدى « عامر » ..

شيء يحسّ به ويضمه بين يديه !! . شيء له وملكه !! .

* * *

كان اليوم التالي .. يوم موعدها مع « عامر » ..

سيكلمها في الساعة العاشرة ..

انتظرت تستحث الوقت .. لكن الساعة العاشرة خيبت آمالها..

حتى الساعة الحادية عشر ..

إذ مزق رنين الهاتف صمتها .. وانتظارها ..

اعتذر « عامر » عن تأخره بسبب الاشغال المتراكمة عليه ..

لمَ لا تقبل عذره ؟ وهي التي أصبحت تتقبل منه أيّ شيء ..

وتواعدا في منزله .. الساعة السابعة مساءً .. ينتظر كالعادة وراء فتحة الباب .

زحف ركب الزمن متكاسلاً ، حتى توقف عنـد السابعة .. موعدها معه ..

ويبدو أن مرارة الانتظار التي ذاقتها خلال تلك الساعات الفاصلة الى الموعد ، قد جعلتها تتأخر ربع ساعة ..

طواها الدرب كالمرة السابقة .. وتلقفتها الدرجات وفتحة الباب الصغيرة ..

ووجدته ينتظر صامتاً يهيمن عليه قليل من الشك والتساؤل..

ـ لمَ تأخرت يا سمر ؟ ..

ـ أعتذر عن تأخري .. لم أحسب الزمن للطريق ..

ـ أنا في انتظارك منذ نصف ساعة ..

ـ صحيح ؟ ..

قالتها آسفة لتلك الـ « نصف ساعة » الضائعة من عمر حبها ..

ثم عاد له الابتسام :

ـ أهلاً وسهلاً .. أهلين وسهلين ..

كانت الاسئلة منه والاجوبة منها تختلط مع صرير المفتاح في القفل كالمرة الماضية .. واهتزازات السلسلة المتدلية من المفتاح ..

وأحاط كتفيها بيده بصورة آلية .. ودخلا الى الغرفة بعد أن قطع التيار الكهربائي .. وقفل البابين الفاصلين الغرفة عن الصالون الخارجي ..

دخلت « سمر » غرفتهما .. تلك الغرفة التي تجمع عامراً بزوجته مدى العمر !! ما أسخف الزمن !؟ ..

يقنعنا ونحن في أوج السعادة بالاستكانة والهناءة .. حتى إذا ما عاد ليسلبنا ما وهبنا .. ندرك مدى اندفاعنا في الأوهام .. وتمادينا في غيّنا .. في طلب أشياء زائلة ليست لنا ! ..

جلست « سمر » على طرف سرير خمّن ظنها أنه سريره ..

إنها لا تريد لمس سرير زوجته .. وقد ميّزته من ترتيبه ومرور الايام عليه لانها بعيدة عنه .

امتدت يد « عامر » تخلع العقد المتجملة به .. حين اقترب منها جاذباً جسدها نحوه ..

واستكان رأسها على صدره ! ..

استسلمت « سمر » لحركته تلك .. التي رافقها وميض في اعماقها كالنار ! ..

وميض شلّ منها العزم .. ثم هدأت كالقطة الاليفة ..

ضعيفة .. مستسلمة .. ناسية الزمن والأيام ...

وسألها عن نفسها .. عن رغائبها .. عن ميولها ..

وأجابته بصراحة وصدق ..

لقد كان ترددها في الإجابة على سؤال يطرحه ينتهي عند كلمة فيها كل الثقة .. « وحياتي عندك » ..

ويكررها « وحياتي أنا » فتفتح له على أثرها مغاليق قلبها .. وتسكب أمامه ما يغلي في إناء صدرها التعب القلق ..

وهنا نشط الزمن ..

نسي الكسل الذي عذّبها طوال النهار ..

قامت الى المرآة تسوّي شعرها .. وتضع العقد الذي كان على السرير لساعات .. لقد كانت كل حبّة فيه تشهد على وجودها مع « عامر » ..

وانعكست صورة « سمر » في المرآة ..

وتساءلت :

ـ أهذه هي « سمر » ؟ .

وجه يتضرّج بالدماء المندفعة اليه .. والشعر أشعث .. وعينان ؟! فيهما شيء لا تستطيع التعبير عنه ..

حاذاها « عامر » متلمساً يديها :

ـ أعيدي « تواليتك » جيداً ، لئلا يشعر من يراك خارجة بأنك فتاة ثانية ..

أجابته متخابثة :

ـ ألا تعتقد فعلاً أنني أصبحت فتاة ثانية .. غير الأولى .. ؟

ابتسم متجاهلاً معنى إجابتها ..

ثم قال :

ـ أأستطيع رؤيتك غداً ؟ ..

واعتراها شبه خوف مبهم ! ! أتأتي كل يوم ؟ ..

ـ بعد غد .. إذا لم يكن لديك مانع ؟ !

أجاب بسهولة :

ـ والذي بعده .. وبعده .. اذا كنت ترغبين في هذا ؟ ! ..

أعادت جوابها :

ـ بعد غد .. إذا أردت ! ..

رفّ في أعطافها حزن .. لمَ تساهل في تأخير الموعد ؟ .. أما كان الاوفق لو صبّ نبراته في أذنيها مكرراً طلبه .. « يجب أن أراك » ! !

لو قال لها هذا .. لفعلت كل ما يطلبه منها .. ولو كلفها حياتها ..

ثم قال :

ـ على كلٍ .. سأتصل بك في السابعة مساءً لنؤكد الموعد ..

وسارت « سمر » وراء القامة المديدة من حجرة الى أخرى حتى جمعهما الوداع وراء الباب الاخير وتنزهت نظراتها عبر ذلك الوجه الذي ينبض حناناً .. وضمّت أصابعه بين يديها تقبلهما شفتاها واحدة واحدة .. وانسلّت خارجة الى الطريق ..

* * *

عادت « سمر » مع إحساس غامض وقلق دفين ..

أصبحت تخاف فقدان « عامر » وتخاف من مجرد التفكير والتساؤل في كل مرة تعود بها .. أتراه ثانية ؟ ؟ .. كانت تحس في داخلها بأن الاحزان تمتزج مع حبها .. وأن القلق يتكهّن لها بأنها ستفقده يوماً .. لكن التساؤل يحيرها ..

وتخاف عجلة الزمان .. وسرعة الفراق ! وهي التي لم تنل من حبها معه سوى القليل ..

تمددت على سريرها .. مع أنغام ساحرة انبعثت من المذياع .. في ليل حالم ناعم ..

في أعماقها حب وألم .. وضياع ..

وتحسست شعرها ووجهها .. كل مقطع فيه لمسة من يدي « عامر » .. حتى جفونها أغمضتهما بحركة من أصابعها كما فعل « عامر » ووصف نظرتها بالفظيعة ..

غمغمت تئن :

عامر .. أحبك .. أنا على موعد معك كل ليلة .. في غرفتي.. مع وحدتي .. وضوء مذياعي الشاحب يذكرني بأملي الشاحب في رؤياك دوماً .. حينما ينزف الشجن من قلبي الكئيب ..

وتتخيل الهامة الحلوة أمامها .. في الظلام .. فتمتد يداها لتقبض على الفراغ .. وتعود خائبة الى الفراش تعبث به .. وتلهث كمن يصارع الحياة ..

عامر .. أنت لي .. لي وحدي .. لا لزوجتك ..

وانتفضت « سمر » .. كمن لسعته عقرب .. لقد غفت كثيراً عن التفكير في زوجته ؟ ..

يا للساذجة ! أتحصل عليه وتتركه ؟ ..

جالت أسئلة كثيرة في خاطر « سمر » ..

أسئلة عذبتها.. وضاعت معها في بحران من الهموم.. واسلمتها لأرق فظيع طيلة ليال عديدة ..

ما مصير حبها ؟ .. ما مصيرها مع « عامر » كيف زوجته ؟ .. لمَ تركته ؟ .. هل هي جميلة ؟ ..

هكذا كانت أيام « سمر » ولياليها .. متتابعة .. متساقطة .. كما تتساقط أوراق الشجر في مهب ريح الخريف .. من الاسئلة والقلق والضياع ..

أيام « سمر » البعيدة عنه .. حفنات من الفراق .. ومن العمر الطويل ..

إذ انتظرته في الساعة السابعة .. موعدهما الثالث .. ولم يتصل بها ..

أيجب أن تطمع دوماً في رؤيته ؟ ..

الا يجب أن تعتاد الحرمان ؟ .. وهي التي كانت تعرف تماماً أن نهايتها معه هي الحرمان ..

فلمَ الآلام ؟ .. ولمَ التجاهل ؟ ..

لتنتظر ما كتب لها في لوح القدر علّه ينصفها .. ويعطف عليها .. ومرّ أسبوع ..

كأنه عمر مديد في فراقه ! !

مرّ دون أن يكلمها أو يسأل عنها ! ! .. وهي تنتظر دون أن تمل من التفكير والحنين اليه في كل ثانية مرّت بها .. وخانها الصبر .. فاتصلت به ..

وأجابها بلهجة يعتريها الفتور .. كأنه تذكر لتوّه أن في حياته إنسانة تسمى « سمر » ..

قال :

ـ أتأتين ؟ ..

ـ كما تريد ..

ـ في السابعة إذاً ..

وأغلقت السماعة وهي تحتضن لهفتها ..

هل أخطأت في اتصالها به ؟ ؟ ..

أما كان الاحسن لو انتظرت ليخابرها .. ويطلب منها المجيء ..

لمَ تحرّشت به ؟ .. ولو بقي الامر له .. أتراه يخابرها محباً مشتاقاً ؟ ..

هو بالنسبة لها ، أول من فتّح عينيها على معنى الحياة .. أما هي بالنسبة له .. ليست سوى إحدى الفتيات اللاتي مررن بحياته كتسلية عابرة ..

ربما يأتي يوم ينسى فيه وجهها .. وينسى أنه رآه في فرصةما!!

لقد أصبح لها كل شيء .. حلم الليالي وزهرة الاحلام العاطرة ..

هو لليلها المصباح ، ولنهارها الإشراق والجمال ...

أترى جمالاً بعد اليوم إلا في وجهه ؟ ..

أترى سكينة الا في دربه ؟ ..

أتعرف طعم الحب إلا بين ذراعيه ؟ ..

أتحسّس بالهناءة إلا في قربه ؟ ..

ونثرت شعرها الى الوراء بهزة تنفي شيئاً أصبحت متأكدة من صدقه ..

ـ كلا لن أنساه .. ولن أكون لسواه ما حييت ..

لن أعرف طعم الهوى بعد هواه .. ولو أمضيت عمري على ذكراه فقط ..

لينسني إذا أراد .. وستبقى ذكراي لديه .. وذكرى غرامي له .. « وقد لمسه متأكداً » نقاطاً على الحروف ..

سيذكرني يوماً .. عندما يحب إحداهن وتعذّبه « طالما يفتقد الحب » ..

سيذكر من عذّبها ونسيها .. سيذكر من ضحّت في سبيله بكل عائق أمامها .. حين أتته صاغرة طائعة ..

سيذكر أنه علّمها تذوق الوجود ، وعاد ورماها في الظلام ..

كيف تجد فيه « سمر » توأماً لروحها ؟ ولم يجد فيها سوى عابرة تُنتسى ..

ودلفت الساعات في غياهب الزمن حتى الساعة السابعة .. التي غيبّت « سمر » في دربه الحبيب .. ودرجات بيته .. وفتحة الباب ..

كان جماله مشرقاً .. وأناقته تزيد في جماله في « بذلة » رمادية مع « جيليه » مزركش ، يلتفّ على جسده متعالياً مزهواً ..

جلست « سمر » على طرف السرير ..

في عينيها خيال آلام تتجول .. وأمام نظرها إشارات استفهام وتساؤل تتراقص ..

جلس « عامر » بجانبها .. كأنه لم يغب عنها طويلاً .. كأنه

لم يتقصد الابتعاد عنها .. سوى كلمة عفوية خرجت من فمه .. ككل شيء عفوي في حياته :

ـ هل أنت غاضبة ؟ ..

وكانت الإجابة هزّة من رأسها تؤكد النفي ..

ولمَ تغضب منه ؟ وهي المسالمة دوماً ..

شدّها الحنين الى صدره .. واستكانت لذراعيه الحانيتين ..

وعذبتها الحيرة وهي تختزن من لهاث أنفاسه .. وتنبش بين طيات كلماته مدى حبه لها ..

أيمكن أن يسمى هـذا حباً مؤقتاً ؟ وقـد لمسته حاراً قوياً كضرام النار ..

ونبهتها الساعة الى أن موعدها قد أزف للعودة ..

وتحركت من مكمنها بين ذراعيه تريد الذهاب ..

مدّ أصابعه مداعباً خدها وذقنها .. ثم احتضن يديها بين يديه ..

إنها تذكر انها تأهبت للانصراف .. ولم تعد تذكر الا انها معه ثانية .. كأنها أتت اليه الآن ..

أتت أقوى ما تكون عاطفة وهياماً ..

واستسلم رأسها لقبضة يده وهو يشد شعرها الى الوراء .. ليعب من ذلك الوجه ..

تمشت القوة في أوصالها حين تلاقت أسنانه مع أسنانها .. مع أنفاس ممزوجة ..

تمشت القوة التي لمستها واضحة في حبها وراء ضعفها معـه واستسلامها لما يريد ..

ولمستها في تأثيره عليها في تلك الساعات التي تجمعهما معاً ..

ومرت لحظات طوال .. في الظلام .. ..

رفّ قلبها وانتفضت كعصفور ذبيح ..

لقد نسيت الزمن بين يديه .. كأنها ملك له .. ولوحده ..

أليس لها أخ يحاسبها اذا أتته في منتصف الليل ؟ ..

ودّعته وهي تعانق أصابعه بين يديها وشفتيها.. وانسلت مسرعة في الظلام ..

واستقبلها أخوها حانقاً .. كأن غضب الدنيا كلها قد صبّ عليه .. ونزل بها صفعاً وركلاً .. لأنها استعملت تلك الحرية الى أقصى حد ..

أتأتيه في منتصف الليل ؟ ..

هذا مالا يحتمله .. وصمدت للعاصفة .. وماذا تقول ؟ ..

أتقول له .. كنت عند حبيبي المتزوج!. وأنا بالنسبة له لاشيء..

واحتضنتها غرفتها ..

كم حنت عليها في ليالٍ قاسية .. ومحن صعبة ! !

وارتمت تعانق الفراش كطائر يلهث وهو ضائع عن عشه ..

وتلوى الجسد بين ثنايا الفراش والوسادة التي عانقت وجهها ..

ولملمت دموعها وتساءلت :

ـ لمَ رأيته ؟ .. لمَ أحببته ؟ ..

لمَ ضيّعتني الحياة .. وكتبت عليّ لقياه وهو البعيد ؟ ..

بعد الصيف عن الشتاء .. بعد قمة الجبل للهوّة السحيقة ..

أيظل في قمته وشموخه وأنا في هوّتي .. أذهب اليه متمسكة بأحجار السفح التي تنزلق تحت يـدي .. وأهوي .. وأعـاود الصعود .. لأصل اليه .. لأعيش معه فترة .. ويعود الواقع يرميني الى هوّتي ..

ثم أنّت هاتفة :

رباه ! أعنّي .. أنت الذي كتبت لي هذا ..

وأخيراً أراحها النوم من أفكارها .. وغضب أخيها .. وحبها البائس ..

* * *

مرّ الصيف مودعاً .. وهو يحمل بين ثناياه ذكرياتهـا المرّة والحلوة ..

ذكرياتها في لياليه ..

لياليه التي كانت قد جمعتها بعامر .. وحنت عليها بظلامها حين كانت تتسلل من بيته .. ويلفها الطريق الى بيتها ..

كانت تعيش لحظاتها تلك مع المساء .. مع غروب الشمس الذي يرسل انعكاسه الناري على نوافذ تلك الغرفة التي تجمعهما .. حتى اذا ما زحف الظلام ، كانت ترى مقاطع وجهه كما هي مع نور المساء .. كأن قسمات وجهه أصبحت لديها مألوفة تسري في دمها وكيانها .. فكانت تتحسسها وتعرفها في النور وفي الظلمة ..

وجاء الخريف ..

إذ أصبحت تحنّ للقيا « عامر » أكثر .. لانها تخافه وتخاف عودة حياتها الى كآبتها الغابرة .. أتعود الى عزلتها وانطوائها بعد

أن عرفت عامراً ونسيت معه طعم الوحدة .. وأحبت كل شيء في سبيله ..

وطال انتظارها ..

وعامر لايسأل عنها.. ولم تجرؤهي أن تكلمه .. وماذا تقول له؟.

أتصف له فتور علاقتها مع أخيها بعد أن ثار عليها مرة بسببه ؟..

ولماذا تشكو ؟ ..

أتراه يهتم لشيء يجري في حياتها ؟ ..

ولو كان يهتم .. أما كان الاحرى به لو سألها عن حالها ؟ ..

وهو الذي يعرف تماما كيف تنسى ظروفها وهي معه ..

وانهارت مقاومتها مع الزمن ! واتصلت به ..

كان جوابه أقرب الى الجفاء منه الى الشوق ..

وتجمّدت لهفتها مع تلك الرنّة الباردة في حنايا صوته حين قال:

ـ سأتصل بك في السابعة مساءً ان لم يكن لديّ ما يشغلني ..

وفي السابعة كانت « سمر » أمام الهاتف تنتظر ..

طال صمته ..

وطال انتظارها ..

لقدعرفت معنى المرارة والهزيمة ، حين بدأت تخلع فستانها الاسود الذي ارتدته لتريه لعامر ! ..

ودوت قهقهات ساخرة في سمعها :

لقد ملك .. لقد نسيك ..

ومع شحوب الخريف .. شحب أملها ..

حاولت نسيان « عامر » وما استطاعت ..

وأحست انهياراً في جسدها ، وخفقاناً في صدرها أتعبها وأقضّ مضجعها ..

ثم بدأت سحب الغضب تنقشع عن قلب أخيها .. حين رأى شحوبها ورأى جسدها يذبل كالزهرة الزاوية .. فحاول أن يخرجها من عزلتها هذه الى المجتمعات والنزهات .. لكنها كانت ترفض معتقدة أن ما بها ليس مرضاً .. بل من آثار صدمتها من حب « عامر » الذي تأصل في صميمها ..

لقد باتت تحن للموت الذي نبهها منه مرة ..

تتمناه .. لتتخلص من رواسب هذا الغرام الذي أضناها وعصف بحياتها ..

وانعشها حنان أخيها الذي شملها ..

وفي ليلة ..

ليلة جمعتها بأخيها .. الذي أخذ يداعبها بنكات حلوة .. كانت البسمة تزحف الى فمها ثم تعود واهية عليلة الى مكمنها .. ودهشت إذ قال فجأة ..

ـ سمر .. ما رأيك في « عادل » صديقي .. أتذكرينه ؟ ..

ـ نعم يا أخي .. ولكن .. لم تسألني عن رأيي فيه ؟ ..

ـ لقد طلبك مني .. أتوافقين ؟ ..

ـ طلبني أنا .. لكنه لم يرني سوى لمحات ..

ـ نعم لمحات .. لكنه أعجب بك .. وبهدوئك ..

ـ اعتقد انني لا أوافق .. إذ أحسّ في جسدي انهياراً ينبىء بمرض .. فلست اهلا للزواج .. والزواج له مسؤوليات كثيرة ..

ـ ماذا تقولين ؟ .. اذا كنت كذلك فلمَ لا نذهب الى الطبيب لفحصك ؟ ..

ـ لا أريد .. أفضل الراحة فقط ..

ـ لا ياسمر .. يجب ان نذهب .. ربما غداً ..

وألقى عليها تحية المساء بعد أن صبّ من عينيه الحنان والاهتمام لوضعها هذا ..

وعطفت عليه .. وهي التي كانت ناسية أن في الكون عاطفة غير عاطفتها تجّاه « عامر » ..

نامت « سمر » ليلتها هذه وهي تستشعر السعادة .. انها لمست في انسان ما الحنان .. لا النسيان والإهمال دوماً ! ...

* * *

مع طلّة الصباح أحاط بها شوق عاطر ..

شوق الى عامر ..

واتصلت به ..

ـ أهلاً وسهلاً .. أهلين وسهلين ..

ـ بكم يا عامر ..

قالتها بصوت واهٍ يحمل بين الحروف الضعف والحزن ..

ـ كيف الأحوال ؟ ..

ـ بخير .. عندما أسمع صوتك ..

ـ شكراً .. لقد شغلت بعودة زوجتي ..

صبّها « عامر » كالصاعقة ..

ـ صحيح .. مبروك يا عامر .. تهانينا ..

ـ شكراً .. بلّغي سلامي الى سهام ..

ثم أنهى المحادثة ..

أهذا هو الشوق الذي دفعها اليوم ؟ ..

يفاجئها بهذا الخبر ! ! كأنه يقوله الى إنسان عادي ؟ .. لقد نسيها حتماً بين ذراعي زوجته التي أوحشته كثيراً ..

وأخيراً تحياته الى سهام !

كيف قفز ذكر سهام الى ذهنه ؟ ! .

أيتهرب من الحديث معها ؟ .. أم حقيقة كان يبلغ شوقه الى سهام ؟ ..

هنا عرفت « سمر » بمرارة تعتصر قلبها أن لا مكان لها بعد اليوم في حياته ..

فطوت قلبها على ما به ؟ .. وخرجت من عزلتها ..

خرجت إلى الناس ..

ذهبت تزور سهام وتبلّغها سلام « عامر » .

وبحثت في سجلّ رفيقاتها عن التي يجب أن تزورها .. ولمَ لا تتناسى ما أصابها ؟ ..

حاولت « سمر » جهد طاقتها أن تنسى بين الرفيقات عامراً ..

ولكن ؟ ..

ما اكثر ما يدّعي الانسان اشياء لا يستطيع تنفيذها ! .. وهو أدرى الناس بما في أعماقه ! ..

لمست « سمر » المرض يزحف نحوها ..

لقد ازداد انهيار جسدها .. ووخزات في قلبها اضنتها .. وضيق في صدرها أتعب وجودها .. وأخيراً قبلت مرافقة أخيها إلى الطبيب ..

وهناك .. تمددت على طاولة الفحص .. وهي في استسلام مطلق للأقدار ..

لذلك لم تأبه للطبيب حين انتحى بأخيها ركن الغرفة .. واخذا يتكلمان عن نتيجة فحصها ..

ثم نهضت لتذهب مع أخيها الى طبيب ثان ..

قرات اسمه حين دخلت مع عبارة « اختصاصي في أمراض القلب » ..

ثمة رعشة خفيفة اعترتها ..

هل قلبها مريض ؟ ..

ولمَ قلبها بالذات؟.. ولمْ يكن غيره.. ألأنها حمّلته فوق طاقته؟..

حملته حبها .. وعذابها ..

أم الحرمان هو الذي أورده هذا المورد ؟ ..

خواطر متضاربة عصفت بها وهي تمشي قرب أخيها .. وتدخل غرفة المعاينة .. ويُبدأ في تخطيط قلبها ..

غادرت «سمر» طاولة الفحص.. وهي تتفرس في وجه الطبيب..

ماذا سيقول ؟ ..

أنصتت لنصائحه .. وهو يطلب منها الراحة التامة .. وعدم التفكير فيما يزعجها .. وأوراق كتبها ودفع بها الى أخيها .. فيها أسماء الادوية التي يجب أن تتناولها وتثابر عليها .. على أن تعود بين آونة واخرى ليفحصها أيضاً ..

ونفذت الوصية كما طلب منها .. من أدوية .. وهدوء .. ومكوث في السرير ..

إلا من حنين يشملها دوماً .. حنين الى « عامر » مهما فعل بها!

وتحسنت صحتها قليلا .. لكنها في أعماقها كانت في ضياع ..

ضياع تام كأنها آلة تسير .. غير شاعرة بشعور أحد .. ولا يرى في ملامح وجهها أي تبدّل .. أي ألم أو فرح .. كانت في ضياع الا مع نفسها ..

نفسها التي كانت مع «عامر» دوماً .. والتي كانت تنفرد بها عندما تدخل غرفتها وتلفها ظلمتها الأليفة ..

سجلت « سمر » شوقها في رسالة بعثتها إليه .. قالت :

عامر :

أنا في حزن دائم يا عامر .. فما الذي فعلته بي ؟ .. قل لي بربك ما فعلت بي ؟..

أحببتك وما أحببتني .. اخلصت لك وعذبتني ..

عبدتك وما دريت بي .. وهبتك ما أردت وما اكتفيت ..

فلمَ نسيتني ولم تهبني نسيانك ؟ ..

يجب أن أنساك يا عامر ! ولكن كيف ؟ ..

أأنساك وموسيقى صوتك في أذني ؟ ..

أأنساك وعبق أنفاسك دوماً كأنه يلفح خدي ؟ ..

أأنساك وعيناك أمامي تسكب فيّ الحنان والعاطفة ؟ ..

قل لي يا عامر .. كيف أنسى وتلك الذكريات العاطرة تعيش أبداً في خافقي ؟ ..

وأنا التي كنت لا أفهم طعم الحياة .. ولا أفهم معنى أن يعيش الإنسان محباً لأحد ؟ ..

كنت في نقمة على البشر .. كنت في يأس .. كنت في وحدة ..

ثم امحت أفكاري كلها بين يديك .. وضاعت أحزاني معك .. إذ غدوت لي الأمل .

لقد أنرت ليالي وعدت لتظلّمها .. وسهلت دربي وعدت لتلقي العثرات فيه ..

لمَ لمْ تتركني في تيهي ؟ .. لمَ لمْ تقل لي منذ أول مرة : أنا لست لك ؟ .. حرام أن أعذبك ..

أما تخاف أن تُعذب يوماً يا عامر ؟ .. أم تعتقد في قلبك الصمود الكافي ؟ ..

إنك بشر ياعزيزي .. وأخاف عليك من الايام ان حرمتك ماتحب ..

أخاف عليك من رفة النسيم .. وانت لا تخاف علي ولو من الجحيم ؟ ..

آه ما أقسى قلبك ! كيف تكمن القساوة وراء الوداعة والحنان ؟ .

الكل يشهدون لك باللطف ، ولكنهم يشهدون لك بالغدر أيضاً ..

فلمَ قرنت اسمك مع تلك الكلمة ؟ ألا تخاف نارها ؟ ألا تهاب أشواكها ..

سامحك الله .. وهنأ بك زوجك ..

ما ذنبها ؟ .. أنا أحبها كما أحبك .. هي قطعة منك وتحمل اسمك .. وستحمل لك الاولاد يوماً ..

أتمنى أن أراهم .. لأرى فيهم شبه أبيهم ..

المخلصة سمر ..

أنهت « سمر » رسالتها والدموع تملأ أجفانها .. ونادت هامسة: عامر ! ..

هذا هو هتافها كل ليلة .. كانت تهتف باسمه قبل أن يعطف عليها النوم .. ويريحها من أشباح الظلام .. وتسمع صدى صوتها الخافت يمتزج مع النسيم الذي يدخل نافذتها ..

كانت تنظر اليه بامتنان وهو يخرج من النافذة الثانية مسرعاً .. حاملا هتافها الصادق بين ذراعيه ..

إلى البعيد .. الى هناك ..

الى بيت « عامر » ليسكبه في أذنه الغافية ..

ثم يدور النسيم ويطوف حول البيت .. فتصدمه النوافذ والابواب المغلقة .. وما من فتحة يمرّ منها .. ويأسف لفشله هذا .. إذ يحمّل الهتاف الى جدران المنزل وطيّاته .. لعل عامراً يسمعها حين يخرج منه ..

خافت « سمر » من تراكم هتافاتها ..

خافت على « عامر » ..

خافت أن تصبح تلك النسائم رياحاً تقتلع منه الهدوء ..
لتقلع إذاً عن الهتاف .. فقدأصبحت تخافعليه من شدة حبها ..

* * *

احتضنت « سمر » سماعة الهاتف دون تفكير .. وأدارت الرقم ..

ـ ألو نعم ..

ـ مرحباً يا عامر ..

ـ أهلين وسهلين ..

ـ وصلتك رسالتي ؟

ـ نعم ..

قالها بعتاب ..

ـ كيف صحتك ؟ طمنّي عنك

ـ لا بأس .. ولكن ..

ـ لكن ماذا ؟ قل ..

شملها خوف إذ ظننته مريضاً كما هي مريضة ..

لكنه قال :

ـ أستطيع أن أراك اليوم .. فزوجتي عند أهلها .. وستأتي بعد يومين ..

ـ سآتي يا « عامر » انتظرني ..

نسيت « سمر » كل ما مرّ عليها قبل اليوم ..

نسيت مرضها .. نسيت هجرانه لها .. نسيت الشوق الذي كان يعصف بها والحنين الذي كان يعذّبها وهو لاهٍ بعيد ..

وتجمّلت حتى الموعد .. كل وقتها مرّ أمام المرآة .. تتفحص وجهها وجسدها .. هل ذهب المرض بجماله ؟ أم لا تزال تعجبه وترضيه ؟ ..

وخرجت قبل الوقت بدقائق .. تعبّ من هواء الطريق .. علّها تختزن منه الكفاية .. لئلا يتعبها قلبها بين ذراعيه ..

يجب الا يشعر بمرضها .. يجب أن تظهر أمامه كأحسن مايكون شكلاً وأوفر ما يكون صحة ..

حمّلت جسدها في سيارة الى بيته .. وتلقفتها الدرجات .. وفتحة الباب .

قام مرحباً كعادته .. يغلق الباب ويقفله عدة مرات ..

استدار « عامر » ليحاذي « سمر » .. ليس به حتى ولا ومضة من الشوق بالرغم من مضي زمن طويل مرّ على فراقهما .. وصافحها جسده في « بيجاما » بلون السماء .. وقد أحاط عنقه بمنشفة بلون الفستق .. وهيأته تدل على مفارقته النوم لتوّه ..

بين إطباقه جفونه آثار النوم .. وشعره الذي مشطه مبتل بالماء .. اذ نفرت منه خصلة أمامية انحنت على جبينه تحيي « سمر » ..

ابتلعهما الممر والبابان ..

وجلسا متجانبين على السرير بعد أن أسكت الموسيقى المنبعثة من المذياع .. ولمّ الموسيقى وصوته لديها أحلى من أروع المعزوفات ..

حمّلت « سمر » تلك الدقائق السعيدة التي تمضيها معه كل ما يعتمل في قلبها من شوق وحب مفعم .. وحمّلها هو حبه وهمساته دون أن يشير الى رسالتها بشيء .

ما أحبت اسمها الا حين تنفلت حروفه من بين شفتي عامر ..

حروف يلفها الحنان واللهفة ..

كم يصوّر لها حبها صدق حبه في القرب ؟ .. وفي البعد يعذبها ويشغلها ..

ثم أسندت موضع قلبها لرعشات اختلجت فيه .. إذ سألها « عامر » واللهفة تقطر منه ..

ـ ما بك يا سمر ؟ ..

ـ لا شيء يا حبيبي .. أنا سعيدة .. سعيدة .. قل لي .. تكلم .. كلمني عن زوجتك وعن حياتك معها .. أرني صورتها ..

ـ سأريك صورتها .. هنا في هذا الدرج ..

ثم فكر لحظة .. لماذا يزعجها ؟ .. هي في غنى عن رؤيتها ! .. طالما تراه ويراها .. وتحبه ويحبها .. قال متداركاً :

ـ لا أعتقد أن لها هنا صورة .. على كل سأريك إياها يوماً ما ..

ثم عادا لنفسيهما .. وتكلما كثيراً .. عن أشياء تختزنها له .. ويختزنها لها ..

وكان صافياً معها كالماء الزلال الرقراق .. وهي صافية معه أكثر .. لا تشوب علاقتهما هذه شائبة .. فلمَ الآلام تعتريها في بعده ؟ ..

أيمكن أن يكون لها دوماً ؟ وهي التي عرفت منذ أول مرة أنه متزوج ..

ألا تكفيها دقائق حبه هذه ؟ ..

نعم تكفيها على أن تكفل رؤيته .. وكيف تكفلها ؟ وهي التي تسير بها الآمال نحو الفناء ..

الفناء في حبه .. والفناء في صحتها ..

أخفت « سمر » مرضها وأحزانها عن « عامر » .. ونسيت معه كل شيء .. إذ عاشت معه وله في ساعات سعيدة من عمرها الطويل البائس ..

عاشت كلص يسرق !! .. ألم تسرق سعادتها منه ؟ ..

ألم تسرق حبه وقبلاته التي يجب أن تكون لزوجته فقط ؟ ..

لو علمت تلك الزوجة يوماً بسرقتها هذه ؟ فماذا يكون موقفها ؟.

إن « سمر » تتألم لألمها .. ولكن .. أتضمن تلك الزوجة اخلاصه التام ؟ ..

أن « سمر » تحب تلك الزوجة من أعماقها ، أليست زوجة « عامر » ؟ ألا يجدر بتلك الزوجة أن تحب «سمر » لأنها تحب زوجها ؟ ..

كان لقاؤهما قصيراً بسبب موعد « عامر » مع أخيه ..

نهضت « سمر » تسوّي شعرها ووجهها .. ونهض « عامر » يرتدي ثيابه متأهباً أيضاً للذهاب ..

ألقت « سمر » نظرة أخيرة على تلك الغرفة التي شهدت أسرار حبها ..

أسرار سعادتها ولقاءاتها مع أليفها وحبيبها ..

وخرجا معاً الى الصالون ..

تروّت قدما « سمر » في المسير .. حين أنصت « عامر » لضوضاء خارج البيت ..

لكن « سمر » لم تسمع شيئاً .. فسألته :

ـ ما بك ؟ ..

قال :

ـ أسمع ضجيجاً في الخارج ..

ـ حينما أكون معك لا أسمع شيئاً خارج نطاقنا ..

ارتسم شبح ابتسامة على وجهه .. وقد امتدت يده الى طرف ردائه الايسر .. وأزاحه عن موضع قلبه :

ـ الا تسمعين هنا شيئاً أيضاً ؟ ..

كانت أمنية « سمر » منذ دقائق أن يظل رأسها على صدره .. لتغترف لمشاعرها راحة تعينها على الحرمان في الايام المقبلة .. وجاءتها حركته تلك كأمنية تحققت لتوها .. فارتمت على صدره محيطة جسده بيديها .. واضعة رأسها على مكان قلبه .. ثم سكنت في غفوة قصيرة ..

واستكان لها .. كأن عطفه عليها قد أحاله الى كتلة حنان حالم دافىء ..

انسلت « سمر » من فتحة الباب الذي أغلق وراءها .. وطواها الدرب ..

ركبت أول سيارة صادفتها .. وعادت ..

عادت الى غرفتها .. الى وحدتها ..

* * *

أصبحت أيام « سمر » عاتية .. فيها مرارة الحرمان .. فيها

شبح المستقبل المخيف .. وفيها وحشن المرض ينهش من صدرها وقلبها .. ويرميها الى الآلام والضيق ..

ثم أصبحت ترى في الهاتف شبحاً قابعاً يرقبها .. وأحيانا تراه حبيباً حنوناً .. لانه يحرمها من صوت « عامر » لمدة طويلة .. وتارة يسمعها صوته الحبيب .. فيه العطف أحياناً .. والجفاء أحياناً .. وهي صابرة .. صامتة .. مع محنتها هذه !.

وهل يصح أن تسميها محنة ؟ .. وهي التي تحس بها سلوى لتعاستها الماضية .. ومرضها الحاضر .. وجهلها للمستقبل بين يدي القدر ..

ومع الشتاء والعواصف ونواح الرياح هزّها الشوق اليه .. واتصلت به ..

كان يكتنف صوتها الحنان والشوق ويكتنف صوته الجفاء والفتور ..

وصدمت ..

صدمت من لهجته القاسية .. اتراه ملّها ؟ .. وملّ حتى محادثتها من بعيد ؟ ..

أتراه يتمنى الا تخابره ؟ وما يدريها ؟ والبعاد ناشر اذياله بينهما؟.

كيف لها أن تعلم .. وهي التي كانت كثيراً ما تشك في حبه .. وتعود قانعة راضية ، كلما جمعهما لقاء ..

كيف لها أن تعلم .. والصوت بعيد عبر الاسلاك ؟ ..

لكنها ما استطاعت ان تتصور عينيه وقد غادرهما الحنان الذي كان يتسرب الى أعماقها ..

ما استطاعت أن تتصور الابتسامة تفارق شفتيه ! !

أنهت « سمر » حديثهامعه لئلا تزعجه وقد رأت في الجوغيوماً . .

وأصابها من صدمتها تلك حزن غريب الشكل . . شملها طيلة أيام عديدة . . وقد لمست الشفقة تطلّ عليها من كل عين ترقبهـا . . واسترسل هذا الحزن كثيراً في أغوارها ، وانساب في نفسها . . ومع ذلك وجدت معه راحة . . وبعدا عن الآمال الكاذبة التي كانت تداعبها دائماً . .

تناست الهاتف ورقم عامر . . ولم تعد يدها تلمسه . .

ومرت الايام . . وقست الليالي . . اذ رانت الوحشة على حياة « سمر » مع فراغ قاتل . . وألم دفين أحالا وجودها الى العدم إلا من منبع الحنان الذي شملها من أخيها . . وصديقتها « سهام » . . وهدأت نفسها قليلا . . وغفت آلامها مع ذلك الإشراق الذي كان يطل من وجه أخيها كلما اجتمع بصديقتها سهام . . ورأت الحمرة تتمشى في وجه صديقتها تلك من نظراته المعبرة . .

لقد حاولت نسيان قصة حبها لترى قصة حب جديدة تنسجها الايام ، وينسجها مرضها الذي كان السبب في جمعهما معاً . .

صادقت « سمر » السرير الذي أصبح اليفها . . فهو أرحم من ضياعها وشرودها الذي كانت تعيش فيه . . كانت تتناسى مرضها لتظل على أهبة لقيا « عامر » أما وقد نسيها وأهملها . . والمرض تلقفها ، فمن يعطف عليها سوى سريرها ؟ . .

وازدادت العلّة بها . .

وازدادت زيارة الطبيب . . ثم لازمتها « سهام » . . ترعاها . .

وكان يوم ..

رن جرس الهاتف .. وكان المجيب صديقتها :

ـ ألو ! سمر ..

ـ لحظة من فضلك ..

نادت سهام :

ـ سمر ! هناك من يطلبك ..

نشطت أنفاس سمر .. أتراه « عامر » ..

ـ ألو .. مين

ـ سمر !

ـ نعم يا عامر .. اهلاً وسهلاً ..

ـ أتأتين .. أنا في انتظارك ..

ـ سآتي يا عامر .. الى اللقاء ..

أغلقت سمر الخط وهي تستند بجذعها الى الجدار .. خشية السقوط .

لقد هزّتها المفاجأة .. وسالت الدموع صامتة على خديها .. أهي دموع الفرح أم الالم .. إنها لا تدري ؟ ..

ـ كيف تذهبين يا سمر وأنت مريضة ؟ ..

ـ سأذهب يا سهام .. ولو لفظت روحي هناك .. بين ذراعيه هذه أعز أمنية أتمناها .. أن تنطفىء جذوة حياتي مع طلة وجهه ..

ساعدتها « سهام » على ارتداء ثيابها .. وزينتها .. وأوصلتها الى تاكسي يقلّها اليه ..

رحب « عامر » بها وهما يدخلان الغرفة ..

انها غرفة أخرى غير السابقة .. وطالعها نور خافت وضع على الطاولة .. وعلى الجدران صور عديدة في الستائر الكثيرة المسدلة .. وفي الزاوية وضعت خزانة للثياب .. وفي الجانب الآخر مدفأة تشتعل ، أمامها كرسيان ..

وجلست سمر ..

ابعد مرور تلك الايام القاحلة ؟ تراه أمامها .. كأنه لم يغب عنها .. كلامه .. نظراته .. حركاته .. كأنها البارحة كانت معه ! !

كيف لا يشعر بمرور الايام التي تفرقهما ؟ .. وهي التي تذوي وتتعذب كثيراً .. من بعده

لقد كان معها إنساناً عادياً .. لم تخلّف له الفرقة أي حنين يبعث في كلماته الشوق ..

كانت سمر عطشى الى كلمة ..

كلمة واحدة .. كلمة شوق تفجر أنوثتها .. لكن كلماته سكبت الجمود في أعماقها ..

أحست بخيبتها .. بمرارتها ..

كبتت عبراتها وهي تعاتب زوايا الغرفة والبيت .. لمَ خدعتها تلك الزوايا ؟ .. لمَ وهبتها الحب والسعادة في يوم مضى .. وعاد هو يسكب الصقيع في أعماقها ..

يا لتفاهتها ؟ ! ..

كيف احتملت قوله :

ـ انا أحب « سهام » صديقتك .. احبها منذ زمن بعيد .. وسيأتي يوم أتصل بها ..

افهميني جيداً .. لا تكوني إنسانة عادية.. تافهة .. ستخسرين كثيراً من قيمتك عندي اذا اعتقدت بذلك الحب العذري المراهق .. الحياة متعة .. ودقائق يمضيها الإنسان .. لندع كل شيء يمر بصورة عفوية .. الآن أعيش معك لحظات سعيدة .. أقبلك .. وأضمك .. وأتكلم معك .. لكن هذا .. لا يمنع أن أعترف لك اني الى الآن لم اشعر بحب لك ! ! ولست أدري اذا كان سيولد في يوم من الايام ..

ثم كرر ..

لا تكوني تافهة .. الحياة متعة .. وأنت نفسك عليك أن تتمتعين بكل ما يهبك الزمان ..

لا .. لا .. لا تحاولي إقناعي بأني الوحيد في حياتك .. فان كنت كذلك ، فأنت انسانة عادية .. تخسر قيمتها عندي اذا كانت هذه آراؤها ..

وغمغمت سمر ..

يا لتفاهتي ! .

إنسانة عادية لاني أحبه لوحده ؟ .. ولن اكون عادية اذا أحببت عشرة رجال معاً ؟ .

تافهة اذا كنت صادقة مخلصة ؟ .. ولن أكون تافهة اذا غدرت بالكل معاً ؟.

تافهة اذا كنت احبه واذكره في كل دقيقة وثانية تمر عليّ ؟ .

تافهة لانيّ معه كل ليلة .. ومع هتافي اليه .. كأني في معبد أقدسه ؟ .

تافهة لأني أتمنى في كل لحظة أن اسمع رنين صوته في أذني ؟.

تافهة لأني تناسيت ظروفه وزوجته ؟ .

تافهة لأني اضحي بسمعتي ومستقبلي .. واجيء اليه طائعة راضية ؟ .

تافهة . . . . .عادية . . . . . تافهة . . . . . عادية . . .

فكيف أصبح شيئاً في نظره ؟ ..

شيئاً يقدسه ويرعاه .. ويعجبه ..

كما تريد يا « عامر » .. سأصبح شيئاً في نظرك .. وستريك الأيام ذلك ..

* * *

لقد كانت « سمر » تدفع للقياه ثمناً فادحاً .. وهي الواثقة أن الفناء والعدم الذي ينتظرها يعادل الدقيقة التي تقضيها في التطلع الى وجهه ذاك الوجه الذي يأبى أن يبارح مخيلتها لحظة ..

ولو كان الفناء والعدم في الموت فما ارحمه ؟

لكن فناءها هو ضياعها .. وضياع سمعتها التي قدمتها له هدية رخيصة .. منذ زمن طويل ..

دارت الدنيا بسمر وهي تتلمس جبهتها .. تمسح حبات العرق التي تنزت من جبينها. .اذ أضاف قائلا بعد أن أحاط كتفيها كعادته..

ـ أنا الآن معك .. لكن هذا لا يمنع أن أكون غداً مع سواك .. لقد هزتني عينا موظفة عندنا اليوم بهزة حب .. لو كنت شاعراً لنظمت لها قصيدة .. ان في عينيها جمال وبراءة ..

وتمتمت أعماق سمر :

ـ في عيني عبادة أما استشففتها ؟ .. أم تمل ما تحصل عليه دوماً ؟ ؟ ..

ثم أضاف :

ـ أنا صريح معك يا « سمر » ولو آلمتك صراحتي .. لكنني أشعر براحة عميقة وأنا أقول لك كل ما في قلبي ..

ـ قل ما تريد يا « عامر » فأنا أتقبل منك أي شيء ..

نظر اليها وهو يحاول أن يستشف وقع كلماته عليها .. لكنها كانت أغلق من أن يرتسم على محياها ما تشعر به في أعماقها ..

لقد أخفت عنه أشياء كثيرة .. وآلاماً كثيرة .. فلمَ لا تخفي عنه ما بها الآن ؟ من وقع كلماته .. وهي التي كانت تشعر في كل مرة تراه فيها بأنها لن تراه ثانية ..

فلتعتبر لقاءها هذا وداعاً ..

وداع منه ومن الحياة ..

ألا يحق لها أن تختزن آخر ذكرى منه .. ليت أنفاسها تقف الآن ؟ ! ليته ما فجعها في آمالها الغافية .. وفي قيمة حبها الذي اعتقدت أنها وأدته مع الايام في حنايا ضلوعها .. حاراً لا هباً .. مقدساً فاذا به حب خائب .. وأمل ضائع ..

كانت تجد له العذر في غيابه لانشغاله بزوجته .. أما أن يحب سواها .. ويهتز لسواها .. فهذا ما لم يكن يخطر في تصوراتها ! !

ما اغباها ؟ .. وما اسخفها ؟ ..

لقد اعترف .. اعترف صادقاً بكل مشاعره .. وحبه ..

واستسلمت « سمر » الى يديه وقبلاته .. وهي توهم نفسها بأنها لم تسمع منه شيئاً ..

حقاً ! ان الرجل متقلب في حبه .. وعواطفه ؟ ! ..

أيبغي حباً غير هذا الحب الجارف الذي وهبته له ؟. والذي كانت معه طيعة صاغرة لمطالبه ؟ .

حاولت « سمر » جاهدة أن تغلف نفسها معه .. لئلا يشعر بما يعتمل في باطنها .. ولم تفق الا حين ودعته وهي تضم أصابعه بين يديها وشفتيها.. لآخر مرة .. وخرجت.. ولفتها ظلمة الليل..

سارت بخطوات عليلة واهية .. وهي تفكر :

ـ لا يحبني .. وما أحبني يوماً .. كيف خدعت ؟ .. كان يتلهى بي في دقائق ماجنة يقضيها معي .. وأنا التي كنت أدفع مصيري ثمناً لتلك التسلية العابرة ..

مع ذلك أحبه .. سأبرهن له أني لست تافهة ولست إنسانة عادية ..

كيف أكون تافهة وقد أحببته ؟

كيف أكون عادية وقد عشت معه لحظات ..

سأريك يا عامر أني لست تافهة ولا عادية ..

سأحبك حسب طريقتك .. سأعيش مع الكل بعفويتي كما عشت معي بعفويتك !..

وستكون أنت من بين اولئك الذين سأعيش معهم أوقاتاً .. حلوة ..

دخلت سمر منزلها .. وقد هرعت سهام تحتضنها ..

ـ ما ذا بك يا « سمر » ؟ ولمَ هذا الشحوب المروع ؟ ..

ـ لا شيء ياعزيزتي ؟ لاشيء انني أحبك رغم كل شيء ..

ـ ماذا ؟ .. افصحي .. لم افهم معنى حبك الآن لي .. تكلمي ماذا قال لك ؟ .

ـ لا شيء أبلغك حب عامر لك ..

ـ ماذا تقولين ؟ . وما دخلي انا بينكما ؟ ..

ـ هكذا قال .. يحبك ويحب آلاف النساء معك ..

ـ أمن أجل هذا دعاك ؟

ـ دعاني ليصحيني من أحلامي .. دعاني ليبث فيّ كيف أعيش .. دعاني ليحيا معي وقتاً مسلياً .. دعاني بعفوية كما يدعو غيري .. ليته تركني غافية عن هذا .. ليته تركني مع أوهامي بأنه أحبني يوماً ما .. رغم آلامي يا سهام .. أحبه .. أحبه .. أتفهمين هذا ؟ .. أتدركين معنى أن تحبين انساناً حتى الموت .. الآن أحببت مرضي .. أحببت وحدتي .. وأنا أنتظر نهايتي ..

سالت الدموع مع كلماتها على خديها تمسح آثار قبلاته عليها ..

ستجعلها خدوداً لكل انسان .. لكل من يريد أن يطبع قبلة عليها ..
وصمتت « سهام » متألمة لتلك المسكينة المفجوعة في كل شيء ..
في حبها .. في ذكرياتها .. وفي صحتها ..

* * *

قالت « سمر » حين جاء أخوها يسألها عن حالها :

ـ لقد تحسنت كثيراً .. أين تذهب الليلة ؟ .. أريد أن أسهر معكَ يا أخي .. أريد أن أرى الحياة .. أن اودع الحياة ..

وفي المساء .. كانت مع أخيها في حفل راقص مع عدد كبير من أصدقائه .. بينهم « عادل » الذي أعجب بهـا مرة وأراد أن يخطبها ..

وهمست « سمر » :

ـ عادل ! الا تريد أن ترقص ؟ ..

ـ هيا بنـا ..

رمت سمر جسدها بين يديه .. وقداستجابت لضمته القوية .. ووهبته خدها للمس خده .. اذ تمشت الرعشة بين جوانحه .. وتمشت الراحة في أغوارها ..

ـ لقد أصبحت انسانة ذات قيمة لدى عامر .. سأعيش كما يريد .. سأتخلى عن تفاهتي ..

مع تلك الحياة الجديدة فارق المرض « سمر » .. فارقهـا لانغماسها في أجواء تناست معها ما كان يتعب قلبها .. وتفكيرها .. وتكررت أمسياتها هذه .. وتكرر معها تماديها في طريقها هذا .. وتمادى بها الزهو :

ـ هذا ما أراده « عامر » .. لقد أرضته .. وأرضت قلبها لأنه يحبه ..

وفي ليلة ..

قبلت فيها الزواج من عادل ..

وتزوجته ..

ومرت الأيام .. هانئة رضية .. في أعماق الماضي ذكريات تناستها « سمر » .. وتناست معها عامراً .. لم يعد ذكره يصيبها برعشات .. وحنين .. لقد أصبحت انسانة ثانية .. انسانة عرفت الحياة جيداً .. عرفت كيف تنظر الى الحب .. وكيف تعيش ! ..

وصادفت عامراً في يوم « اثنين » حين نظر اليها .. وكأنه يتذكر أين رأى ذلك الوجه ؟ ..

فاقتربت منه :

ـ سلامات يا عامر ..

ـ أهلاً .. وسهلاً .. قالها بتساؤل ؟ !

ـ الا تذكرني ؟ .. الا تذكر سمر ؟ ..

ـ سمر ؟ أهلاً وسهلاً .. أين كنت طوال تلك الايام ..

ـ كنت أطبق مبادئك التي غرستها فيّ .. كنت في يوم مضى لكَ يا عامر .. كنت أحبك .. واليوم .. اليوم أصبحت امرأة .. امرأة فعلاً كما يقولون .. امرأة تعجبك ..

امرأة ليست عادية .. وليست تافهة ..

لقد لقنتني مبادىء الحياة حين كنت غافية عنها ..

علّمتني كيف أحيا ..

علمتني كيف أكفر بالحب .. وأتفهم الغاية ..

لقد أصبحت امرأة ناضجة .. امرأة غرست فيها أفكارك لكنك خسرتهـا ..

لم تعد العيون الوالهة تسكب في شيئاً ..

لم تعد أيامك تعني لي سوى أيامٍ عشتها وأنا جاهلة الواقع ..

لم تعد الكلمات المعسولة تعني لدي شيئاً ..

لقد عرفت الحقيقة .. وفهمتها ..

ودعت « سمر » «عامراً» بنظرة أخيرة .. حين كانت الدهشة تعانق وجهه .. وشيء من الحسرة يسري في جنباته !!

الحسرة على ماضٍ بعيد طوته الأيام ..

* * *

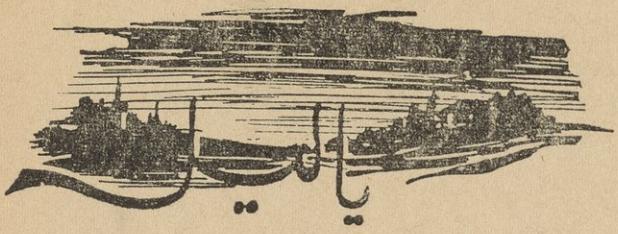

الليل .. الليل ..

ما أقساه ! .. وما أطوله ! ..

ما أبطأ دقائقه التي تمر كدهر طويل .. طويل ..

تجثم على الصدر جامدة لاتتحرك .. كأن ركبها مشلول الحركة ..

الليل .. الليل ..

فيه الجمال .. وفيه الحرمان .. فيه السعادة .. وفيه الشقاء ..

فيه الفراق .. وفيه اللقاء ..

لمَ هذا التلون يا ليل ؟ .. لمَ .. ؟ لمَ .. ؟ ..

ألا تشفق على لهفة ذلك الخائف من طلة فجرك ؟ ..

ألا تشفق على عذاب ذلك المنتظر نهايتك ؟ ..

ألا تعدل بين الاثنين ؟ ..

فتهب الأول شيئاً من الراحة .. وتهب الثاني شيئاً من الرأفة ..

معك يا ليل تصفو مشاعري .. ويذوب حقدي ..

مع هدوئك أهدأ .. مع صمتك أصمت ..

ولكن .. أليس للصمت لسان يتكلم ؟ ..

لسان في الاعماق .. يحاسب ويناقش ويحكم ..

معك يا ليل نهـاية شقاء اليـوم .. حين تستيقظ أغواري لتحاسبني ..

لمَ شقيت ؟ .. لمَ تعذبت ؟ .. وبعد .. لم سعدت ؟ ..

معك ياليل تستيقظ ذكرياتي بعد أن غفت ! .. وقد خلق هذا الجسد المسجى لينسى .. ويهدأ .. ويرقد .

فلمَ لا ترقد معك مشاعري وأغواري ؟ ..

لقد كان نهاري قلقاً ياليل .. ولا أعلم لذلك القلق سبباً ..

لقد كانت نقمتي صامتة ..

نقمة على الحياة .. على الإشراق الذي يعكس الضنى على النفس ..

نقمة صامتة ! .. لأن الأعماق تتمنى الكثير .. من مشاريع وأشياء تريد الحصول عليها وما تحققت ! ..

قلق .. نقمة .. ضياع .. أمنيات ..

وفي مساء ذلك اليوم ياليل قادني ذلك الاضطراب الى جولة أقوم بها في الطرقات .. علّ ذلك الرذاذ الذي انتثر مع المساء يمسح شيئاً عن نفسي ..

سرت .. وسرت .. كلت قدماي وأنا أتفرس في الوجوه .. فما رأيت وجهاً مشرقاً .. كل ما رأيته ولاحظته .. كآبة خرساء تلف تلك الكتل البشرية المتنقلة في الطرقات .. حيرى .. مثلي ..

اقترب مني فتى يقارب الخامسة عشر .. حين امتدت يده تطلب .. وفي عينيه استرحام يقطر ..

ونظرت اليه .. ورأيت فجر أيامه شقاء في شقاء .. يجوب الطرقات ليستجدي العطف والهبة من الناس .. ما أشبهه بنفسي .. الست أطوف الطرقات استجدي من الهواء والطبيعة والرذاذ .. شيئاً من الراحة والسكينة ؟ ..

نقدته بعض المال .. حين شملت الفرحة عينيه .. وكسا البشر وجهه ..

وابتسمت له .. وسرت ..

سرت وأنا أشعر بكآبة تغلف انطوائي .. ألست مثيلته ؟ ..

لا أجد من يهبني ما أطوف بسببه . .لا أجد من يمد يده ليسمح عن نفسي ما يعذّبها ..

كلنا فقراء .. فقراء الى السكينة والاطمئنان ..

وقفت أنتظر الباص .. فاذا بالناس تتزاحم لتحتل عدة مقاعد .. ويسير الباص ويأتي الآخر .. وأنا أنتظر .. ومثلي الكثير ينتظر ..

فدلفت الى سيارة قبعت بجانب الرصيف .. ينادي سائقها « سرفيس » بربع ليرة .. ولم يستمع لندائه إنسان ..

لقد كان في نظراته استجداء ونقمة .. وهو يتقدم ويتأخر بسيارته .. يسترحم الواقفين بصمت .. وما من مجيب ..

وانتظرته قابعة في السيارة وتصورته يقولي لي :

ـ اعملي معروف انزلي .. لن أسير بربع ليرة ! .

لكنه سكت وقدّرت فيه هذا السكوت حين سار ..

سار .. وهو يكبت الثورة في أعماقه .. سار بي وحدي .. وبسرعة عجيبة يتلوى بسيارته بين الطرقات والسيارات والباصات ..

ووصلت الى المكان الذي أريد النزول فيه اذ قلت له :

ـ هنا من فضلك ..

فأوقف السيارة .. واستدار ليأخذ مني ربع ليرة ..

ربع ليرة فقط لطريق طويل ! ..

وامتدت يدي اليه .. بليرة سورية واحدة .. حين نشطت أصابعه في حافظة نقوده ليرد لي الباقي .

فتحت باب السيارة وأنا أقول :

ـ دع الباقي .. لقد أوصلتني لوحدي ..

قال :

ـ لا .. لا .. وماتت الـ « لا » الثالثة على شفتيه حين قلت له:

ـ دع الباقي .. شكراً ..

وانسللت الى الطريق .. ودهشة شاملة تطل من عينيه .. وفم مفتوح .. حائر .. لا يدري ماذا يقول ؟ .. لقد كان الشكر ينطق من قسماته .. وهو مذهو ل من المفاجأة التي عقدت لسانه ..

وسرت .. سرت الى صديقتي وأنا أشعر ببعض الراحة .. لأني وهبت أنساناً .. ما يريد ..

سرت ياليل وأنا أفكر ..

لو ندرك فعل قطرة الندى بين أوراق الزهرة الذابلة .. لصببنا القطرات ..

لو ندرك قيمة « الفرنك » لدى المحتاج اليه لما أخفيناه .. وخفنا عليه ..

ماذا علينا لو أسعدنا الغير .. طالما نفتقر الى السعادة ؟

الا تعكسها لنا الأيام في راحة تشمل ضميرنا ووجداننا ؟

لو فكر كل انسان باستفادة غيره من عمله بدل أن يفكر باستفادته هو ؟ ..

لو تخلى الكل عن كلمة أنا .. لوهبنا بعضنا الكثير ..

واستقبلتني صديقتي ..

كنت قلقة .. مكتئبة .. ورأيتها مثلي .. مكتئبة .. حائرة ..

لقد كانت في حزن والم دائم أعرفه فيها ..

ونصحتها بكلمات خرجت من فمي واهية .. لأني كنت أحوج منها الى النصائح .. لكآبتي .. وقلقي الدائم ..

لقد كنت أجد العذر لحزنها .. ولو الى حدٍ ما .. أما هذا الحزن الذي يصادق نفسي دوماً .. لا أجد له سبباً ولا عذراً ..

لقد كنت أريد شيئاً لا أعرف أن أحدده بالضبط .. أريد أشياء وأشياء ..

وما أكثر أمنيات الانسان وأحلامه ..

ولمست صديقتي الوجوم في قسماتي وفيما وراءها ..

وسألتني السبب .. وتمنيت أن أغسل نفسي من أدرانها بين يديها لكنني أحجمت ..

وامتد بنا الحديث ياليل .. امتد الى أمان أتمناها .. وأحلام تتمناها .. ووصلت الى مشروع يداعب خواطري دوماً ..

ولمسته صديقتي أمنية غالية في أغواري .. ثم غابت عني لفترة عادت بعدها تفرش أمامي النقود من فئات المئة .. وقالت :

ـ خذي ما تريدين يا صديقتي لمشروعك هذا ..

ووجمت .. وجمت أنظر اليها .. وأنا غير مصدقة .. وحارت الكلمات في فمي ..

ثم قلت :

ـ ما هذا ياصديقتي ؟ .. لا لا .. لا أريد .. أشكرك

قالت :

ـ خذي ما تريدين .. لمَ أستنكف عن مساعدتك .. طالما في وسعي ذلك ..

لقد هزني عملها هذا .. هزاً .. لقد أسكتني نبلها ..

لقد أثرت فيّ طيبتها .. وثقتها ..

لقد أراحتني بسموها من قلقي .. وعذابي ..

ودسّت في محفظتي المئات وهي تبتسم .. ابتسامة ناعمة حلوة ..

وسالت عبراتي .. عبرات الشكر .. وخلت أن الدنيا فارغة..

فارغة من الكلمات .. من أي شيء يمكن أن يعبر عن مشاعري في تلك اللحظة ..

تمنيت أن أضمها الى صدري .. أن أغسل يديها بدموعي .. وأن أغسل نفسي من شوائبها .. باخلاصها هذا ..

وعدت ياليل .. عدت اليك لأضمك وتضمني ..

ترى ما أسعدنا لو فكر كل منا بأن يعمل عملاً من أجل الآخرين؟!

ماذا لو كان الكل مثل صديقتي هذه ؟ ..

عدت ياليل .. وفي أعماقي مشاعر تموج .. ومشاعر تسعد النفس ..

يا صديقتي .. ثقي تماماً أن كل كلمات اللغة لو رصّت مع بعضها البعض لا تكفي لتسجيل كلمة شكر لك ..

يا صديقتي .. لو جمعت عواطف البشر جميعاً في عاطفة واحدة .. لا تكفي للاعتراف بجميلك هذا ..

يا صديقتي .. انت اسمى من أن تسمى صديقة فقط ..

انت ملاك .. وأسمى من ملاك ..

يا صديقتي .. لقد وهبتني كل الأمل .. وهبتني شيئاً كبيراً .. كبيراً ..

أكبر مما أستحق ..

شيء يسعد نفسي .. يسعد روحي .. ينعش أمنياتي الضائعة هباء ..

لقد حققت لي ما تمنيته طيلة حياتي .. ساعدتني في عمل كان حلماً في أيامي وليالي ..

وكان شكري ياليل .. كان دمعات ساخنة جرت على خدي تمسح عنه شحوب الخريف وبكاء الشتاء ..

وتدغدغه بآمال الربيع ونسيمات الصيف ..

وعدت ياليل .. عدت اليك لأضمك وتضمني .. وأضم أسراري معي ..

* * *

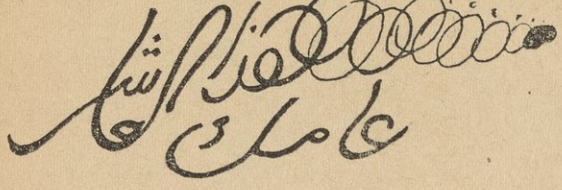

هل تنسينا الأيام شخصاً عزيزاً رحل ؟ ..

منذ زمن بعيد .. أو قريب ؟ ..

هل تنسينا الأيام ، حبه وذكراه ؟ ..

بعدما أصبح يحدق في النور بعينين جامدتين .. أو بعدما أصبح حطاماً تحت التراب ؟ ..

هل تنسينا الأيام .. ذكراه ؟ .. في قلوبنا ؟ .

طالما فيها عرق ينبض بالحياة ..

كلا ! ..

فما في الحرمان الا قوة .. قوة الحب التي كمنت في زوايا الضلوع ..

ثم عادت تتمثل ذكرى .. وحنيناً شاملاً ..

فلتمر الأيام .. ولتقس الليالي .. فذكراه ستظل أبد الدهر في القلب ..

* * *

هذا عامك العاشر يا والدي .. وأنت تتوسد طيات الثرى .. ويضم جسدك التراب ..

وهل بقي لك جسد تحت التراب ؟ ..

لقد أفنته الأعوام .. والأيام .. والليالي ..

يا لذكراك الباقية في الأغوار أبد الدهر ؟ ! ..

هيهات لتلك الأعوام محوها من القلب والذاكرة ..

قبل عشرة أعوام يا أبي ..

في مثل هذا الشهر .. جاءني زوجي قائلاً :

لقد طلب أهلك أخي « الطبيب » .. فلماذا يا ترى ؟ ..

وكنت مع زوجي على مائدة الطعام .. واللقمة في طريقها الى الفم ..

وتعثرت يدي .. وضاعت اللقمة .. اذ وجمت ..

وجمت يا والدي أنتظر من هو المريض منكم ؟ ..

وكان المريض .. أنت ! ..

نعم ! أنت .. الذي ما رأيتك يوماً تشكو من مرض !! ..

الأنك كنت صحيح الجسم ؟ ..

كلا ! .. لقد كانت بك أوجاع عديدة .. لكنك كنت صبوراً .. وحمولاً ..

كنت أميّز مرضك من انزوائك في غرفتك .. وأنت صامت .. زادك الحليب فقط ..

أما وقد طلبت الطبيب .. فهذا مالم المسه منك ؟ ! ..

ودق ناقوس الخطر في أغوار نفسي .. وكان يوم « جمعة » ..

هرعت اليك مع الطبيب يا أبي .. ورأيتك .. مسجّى تتلوى من الألم .. والأنين يندفع من فمك خافتاً متلاحقاً ..

وارتميت على جسدك أتحسسه ! .. وأتلمس يديك ..

ورفعتَ يداً .. حانية .. هدها الألم ، تتلمس شعري .. وتسكب فيّ ما تبقى لديك من شجاعة .. وصبر .

* * *

ونقلوك الى المستشفى يا أبي ..

وكانت « عملية » صعبة .. عمليـة انقاذ حياتـك من مرض خبيث .. فظيع .. « السرطان » ..

هيهات لمهارة الاطباء .. وفعل مشارطهم .. استزادة يوم في عمرك ؟ ! ..

وكان يوم « الجمعة » الثاني .. يوم وفاتك يا أبي ! ..

ثمانية أيام لا غير ؟! لم يمهلك المرض اكثر منها !! ..

يا لذكرى ذلك اليوم يا أبي !! ..

انها خالدة في أعماقي مع خلود الروح ..

فبفقدك فقدت كل شيء .. ووجدت نفسي بعدك ، صورة مصغرة من خصالك وطبائعك !! ..

كل يوم يمر عليّ .. من أيام أعوامي العشرة .. أذكرك فيه .. يا أبي ! ..

أذكرك في صبرك .. وصمتك ! ..

في احتمالك وشجاعتك ؟ ..

ما سمعتك يوماً .. شاكياً ولا باكياً ..

ما سمعتك تتكلم عن انسان بسوء ..

لقد عشت تحتمل كل ما يلم بك من مصاعب .. ومصائب .. ومرض ..

أما أورثتني كل هذا يا أبي ! ..

أورثتني الاحتمال والصبر .. والشجاعة التي تحفزني دوماً لأن أنهض من كبوتي ، أكثر عزماً على المضي فيما قررت السير فيه ..

كيف أنسى طفولتي بين يديك ؟ .. يا أبي ! ..

عندما كان المساء يزحف .. وكنت تسوقني الى سلمنا الخشبي، وانت تردد لي أغنيتي الخاصة ، التي كنت أنشدها قبيل النوم .. والأحرف تخرج من فمك .. مقلداً فيها كلامي الصغير .. ولساني الناقص ..

ثم نصعد السلم درجة .. درجة ..

أنا أمامك .. وانت ورائي .. الى أن تسلمني لأحضان السرير .. والكرى ..

وتعود راجعاً بعدما تطبع على خدي قبلة النوم ..

لقد زينت لي طفولتي بين يديك بأحلى مظاهرها ..

ما كنت أدرك يومها .. مصاعب الحياة .. والحرمان ممّن زرعوا في نفوسنا بذور الهناءة ..

لقد زينت لي الحياة .. وذهبت ..

ليتها تزهر ساعة .. الآن .. كأيامي معك ..

ومرت الايام.. وكبرتُ يا أبي .. وغدوت فتاة السادسةعشر..

كيف أنسى الإطاعة التي زرعتها في قلبي يا أبي منذ ذلك الوقت.. حين حذرتني مرة من احدى رفيقاتي ..

كنت ترتضي لي الخير ! ..

لكني لم آخذ بنصيحتك !! .. وذهبت أزورها ، ضاربة برأيك عرض الحائط ..

وعندما عدتُ .. وجدتك تنتظرني غاضباً .. وامتدت يدك الى خدي .. تصفعه .. لأول مرة ..

نعم .. صفعتني.. لأنك قلت نصيحة صادقة.. ولم أسمعها..

لقد علمتني صفعتك هذه .. معنى الطاعة والاستسلام لمن هو أكبر مني ..

لقد غرست فيّ .. حب الرضوخ والاحتمال ..

الصمت والتفكير .. وغرست فيّ الصبر قبل كل شيء .. الصبر في المرض .. وفي الألم .. الصبر على ظلم الأيام .. وسهد الليـــالي ..

كيف لا اذكرك يا أبي كل صباح ..

وقد كنت عودتني أن تأتيني باكراً .. بردائك الناصع البياض.. لتراني وتسكب فيّ الحب والحنـــان .. من عينين صافيتين .. أطبقت جفونهما الى الأبد .. منذ زمن طويل ..

حتى الآن يا أبي .. لم أجد ما وجدت فيهما من معنى سام نبيـــل ..

كيف لا أذكرك ؟ ..

لقد فقدت بفقدك عطف الكل ..

لقد صدق من سمى « اليتيم » من فقد أباه فقط ..

كيف لا أذكرك ؟ .. وقد وجدت أمي بعدك ذابلة العود .. والروح ..

لقد تبدلت كثيراً .. منذ أن فارقتها يا أبي ..

أعوامها العشرة .. غدت بعدك .. مئة .. !

لقد أذابتها الأيام وصهرها عذاب الليالي .. لقد غدت كتلة بشرية .. تسير .. دون أن تحس أو تشعر ! .. أين ضحكتها يا أبي .. أين صحتها ؟.. أين ذلك الإشراق الذي كنت تسكبه في روحها ؟ أين مداعباتك .. ومناغاتك لها ؟ ..

لقد كنت أحب الحب عندما أراكما ! .. كم كنت تحبها يا أبي .. وكم كنت تخاف عليها ! ..

لمن خلفتها يا ترى ؟ ..

أللحسرة التي أكلت منها الجسد ؟ .. أم للذكرى التي أذوت منها النفس ؟ ..

تركتها للوحدة تضنيها .. للآلام ترعى فيها .. كم أتألم من أجلها يا أبي ! ..

لأنه لم يعوضها انسان عنك .. كما لم يعوضني انسان عن حنانك ..

* * *

أبي ! ...

لو تمر على وفاتك عشرات السنين .. فذكراك هنا .. في القلب والنفس .. محفورة بأحرف من نار ..

بين الضلوع ..

لهيبها يشتد .. ويشتد .. حتى تخبو الروح .. وتخبو معها تلك النار .. نار ذكراك ..

* * *

« سكونك يا ليل يعذبني .. والوحدة تضنيني ..

من هدوئك عرفت معنى السهاد .. ومن وحشتك ذقت مرارة الفراق ..

مع صمتك الذي يلفني .. وفراغك الذي يغلف قلبي ..

مع سحرك أحببت « سامراً » .. وبين طيات ظلماتك ، اقترب مني وكلمني ..

وكان وعد .. وكان لقاء ..

لقاء معك يا ليل ومع « سامر » ..

هل أنسى يوماً رعايتك لي ، وأنت تخفيني بين مطاوي الطرقات؟. متسللة لبيت « سامر » ! ! ..

لألقاه ! .. لأسعد معه لحظات من العمر معدودة ؟ .

هل أنسى أجنحتك المنشورة في غرفتنا معاً ؟ ..

هل أنسى ظلامك ياليل وأنت تعكس لي فيه وجه « سامر » الحبيب .. مع ومضات النجوم .. المتسللة من الستائر المسدلة ؟..

هل أنسى أنفاسه اللاهبة تلفح خدي ؟. وهمساته تنسكب مخدرة في سمعي ؟ ..

انك معي يا ليل .. تنقلها لي كل ليلة .. يا لك من ظالم قاسٍ ؟!

ألا تدعني غافية عن الذكرى ؟ ..

تأتيني وطيف « سامر » تعذباني كل ليلة .. وتغادراني وقد أضنيتما مني الجسد .. وأذويتما الروح .. تاركين الأنات تملأ فضاء غرفتي .. مرددة ..

الى متى هذا السهاد ؟ .. »

وقفت « سلمى » عند هذا الحد في قراءة مذكرات هيفاء : التفتت اليها مع الدهشة التي تطل من عينيها :

ـ ما هذا يا هيفاء ؟ .. أتحبينه بهذه القوة ؟ .. يا للغرابة ! ..

أجابت هيفاء :

ـ أحبه يا سلمى .. هو طيفي الذي يرافقني أينما حللت ! .. هو قطعة من نفسي .. هو روحي .. هو أنفاسي .. هو قلبي الذي تجري فيه الحياة ..

ولكن ما أنكره على نفسي .. هو هذا الاستسلام المطلق .. لحبه .. لغدره .. لنسيانه وجودي .. وكوني مررت يوماً في حياته .. وجمعتنا عدة لقاءات ..

أتراه يشعر يوماً بالحنين ؟ .. ومتى ؟ .. والى متى يطول انتظاري ؟ ..

كيف ينسى ساعات وهبني فيها حب الحياة .. ولذة الوجود؟..

كيف ينسى همساته .. وارتعاشة شفتيه .. مردداً اسمي ؟؟.

كيف ينسى اضطرابه .. واتقاد عواطفه ؟ ..

كيف ينساني شعلة تستجيب لرغائبه ؟؟ ..

وسارت هيفاء وسلمى عبر الحديقة .. تعبّان من هواء الليل ..

لمعت نجمتان في السماء .. وتنهدت هيفاء :

ـ ليت آمالي كومضة تلك النجوم ! ! ..

وهوى شهاب مسرعاً !

اضطربت هيفاء ! ! .. قلبها يهوي كهـذا الشهاب !! .. انه « سامر » أت من بعيد !! ..

يا للصدفة الغريبة ؟! ..

سرت في أوصالها رعشة .. وتعثرت الاحرف في فمها لتقول :

ـ سلمى هذا هو ..

لكن سلمى رأته وقالت :

ـ هذا هو « سامر » يا هيفاء ! ..

اقترب « سامر » مخترقاً الجموع المنتشرة في الحديقة .. وقد اتجهت نظرته الى سلمى ! ..

وكانت لفتة سريعة من رأس سلمى تجاهلت فيها مروره ..

التقت عيناه بعيني هيفاء .. إذ هز رأسه محيياً .. مع الخيبة التي شملت قسمات وجهه .. من تجاهل سلمى له ..

مر « سامر » مسرعاً .. لم يحمّل هيفاء سوى تلك الهزة من رأسه .. دون أن يكلف نفسه عناء الابتسام لها .. كأنها لم تكن يوماً بين يديه حبيبة طيعة ..

اعترت هيفاء انفعالات شتى .. ولم تعد تقوى على الوقوف .. همست :

ـ سلمى .. خذي بيدي .. اني لا أستطيع الوقوف ..

انصبت عليها لهفة سلمى :

ـ ما بك يا هيفاء ! .. لمَ هذا الضعف ؟ ..

وابتلعهما المنعطف الى الدرب الثاني ..

وشردت أفكار هيفاء رغم آلامها مع « سامر » انه هنا ! .. معها .. في الحديقة .. يتنسم الهواء الذي تتنسمه .. بين الزهور .. ومع الليل ..

وأنّت أعماقها :

ـ يا لقساوته ! .. يمر متجاهلاً وجودي .. كأن الأيام لم تفرقنا كثيراً ؟ ..

أنّ طير على شجرة ..

رددت هيفاء :

ـ إنها أنثى الطير .. تئن لفراق حبيبها !! .. انه مع أنثى أخرى حتماً !! ..

عزفت موسيقى من البعيد ..

وتتالت أنفاس هيفاء .. لقد عاد ! .. عاد « سامر » .. وعادت عيناها تبحثان عنه ..

تعثرت خطواتها ..

وشردت روحها مع ذلك الوجه الذي تمركز في خيالها لا يبارحه ..

أما هو ..

فيبدو أن عواطفه كانت مع سلمى .. لأن نظرته كانت اليها فقط ..

حيّته سلمى ..

أجابها مبتسماً والسرور بادٍ على مقاطع وجهه .. وعيناه مستغرقتان في التأمل في وجهها ! ..

مرّ .. بعد أن غاب عنه وجه سلمى !! ..

مرّ .....

كأن هيفاء لم تكن أمامه !! .. وبجانب سلمى !! ..

أما هيفاء .. فكانت على سذاجتها في تقبّل كل ما يفعله « سامر » تتفرس في وجهه ..

هزتها رعشة شوق وذكرى ..

كانت فيها يوماً بجانبه .. يا لتبدل الزمان ؟! ..

ويا لتبدل الإنسان ؟ ! ...

وخيم صمت مطبق بين هيفاء وسلمى ..

طوت هيفاء جوانحها على آلام غزتها .. وكبتتها في أغوار نفسها ..

وماذا تقول ؟ ..

أتقول لهـا :

ـ في أعماق « سامر » حب لك يا سلمى ! ..

ويبدو أن سلمى قد صمتت أيضاً .. لتنفي عن أفكارها .. وأفكار هيفاء ما لمسته من اضطراب « سامر » .. وهي التي تعلم علم اليقين مدى حب هيفاء له ..

الحديقة تضج بالناس !! ..

همسات وضحكات تدوي في آذان هيفاء .. تمتزج مع صمت سلمى ..

أتراهم حقاً سعداء ؟ .. أم مثلها تنزوي الحسرة والكآبة بين طيات نفوسهم ... وتغلف الآلام قلوبهم المعذبة ؟! ..

* * *

تسمرت قدما « هيفاء » أمام صورة زوجها الراحل .. حين عادت الى البيت ..

زوجها الذي مات وخلفها وحيدة في الحياة تعاني المرارة والحرمان ..

وانسلت الى فراشها .. واحتضنتها ذكرى المساء ..

ذكرى تحية « سامر » لها .. ونظرته الى سلمى !

إنه رجل ؟! ..

والرجل لا يعرف القناعة في حبه .. لا يعرف الاكتفاء ولا السكينة لامرأة واحدة ! ..

لقد وثق من حب هيفاء .. فلمَ يبحث عنها ؟ ..

هي التي تزحف اليه لاهثة راضية .. تتمنى من عينيه نظرة .. نظرة تختزن فيها شيئاً من الهدوء والراحة ..

إنه يبحث عن سلمى التي لم يحصل على حبها بعد !! ..

ما أغرب وقائع الحياة !! ..

اكتب عليها هذا الحب البائس .. والعذاب المفزع ؟ ..

هل في الوجود أفظع من أن تحب إنساناً لايحبك ؟ أو لا يوليك شيئاً من الاهتمام ؟ ..

ومضى ليلها في سهاد ! ..

واعتاد السهاد مصاحبتها .. منذ أن عرفت « سامراً » ..

« سامر » الذي أحبته بكل جارحة فيها .. وخُدعت يوماً بحبه لها ..

من صرعها أسيرة عينيه ! .. من اقترب منها مخيراً لا مسيراً .. وتواعدا على اللقاء ..

أتراه كان يعتبرها تسلية عابرة ؟ ..

عاشت هيفاء لحبه ولقائه .. ووهبته من نفسها ما أراد ..

لقد تسلل الى حياتها .. وملك وجودها .. وذاقت الحب منه في أويقات ، غفا الزمان فيها عن حرمانها .. وعذابها ..

لقد اغترفت الحنان من عينيه .. بحراً واسعاً لا يُعرف مداه!..

كيف تنسيها الايام لمسة يديه ؟ .. وهمس شفتيه ؟ ..

كيف تنسى إحساساتها المضطرمة .. وهو يضمها بقوة الحب النابع من الأعماق ؟! ..

وكيف كانت تستجيب شعلة متقدة لرغائبه ؟! ..

ما أغرب عواطف الرجل ! ..

كيف يستطيع نسيان ساعات لم تستطع هي نسيانها ؟! ..

كيف يستطيع محوذكراها من خاطره.. ويبيت هادىء البال؟..

ألا تذكره صفحة خده بخدٍ لامسه متقداً محموماً .. يجري الدم فيه فوّاراً عنيفاً ؟ ..

ألا توحي له جنبات غرفته بذكرى لقائها ؟ !..

أما سمع أنفاسها تتردد ملتهبة مع أنفاسه ؟ ..

ألا يذكره بها ذلك المقعد ؟ .. ألا تبرهن له هيفاء عن حبها واخلاصها .. بتضحيتها هذه .. حين كانت تأتيه متناسية ما وراءها لتسترق من زمنها معه ساعات حلوة .. لن تنساها ما عاشت من الأيام ..

كيف تنسى انسياقها في هذا الحب الذي حطّمها ؟ ..

كيف تنسى رشفات السعادة التي جرعتها قطرة قطرة ؟..

كيف تنسى تحفظها الذي ذاب وانصهر .. حين انطلقت نفسها على سجيتها ، التي كانت قد كبتتها الأيام والتي لم يلمس انطلاقها أي إنسان سواه ؟ ..

* * *

تملك هيفاء شوق جارف « لسامر » ..

نهضت من سريرها الى الهاتف تطلبه .. وجاءها صوته عبر الأسلاك .. وقد نسيت ثورتها ووجودها مع نبرات صوته العميق !.

ـ كيف سلمى يا هيفاء ! .. لقد كدت أتصورها تمثالا من الشمع بتحيتها الباردة لي ؟! ..

تغلغلت الإجابة في اغوار هيفاء .. المتألمة ! ..

كانت تود أن تقول له :

ـ ألا تكفي حرارة تحيتك لها ؟! ..

وكتمت ما بها حين قالت مازحة :

ـ ما هـذا يا « سـامر » ؟! أين اصبحت أنا .. ان أوليت اهتمامك لسواي ؟! ..

قال ضاحكاً :

ـ أنت في قلبي ..

قبلت هيفاء جوابه بمرارة تعتصر قلبها .. وهي توهم نفسها بصدق ما أجاب ..

همس سامر :

ـ أتأتين الآن ؟ .. انا في انتظارك ..

صمتت ..

ومتى كانت ترفض له طلباً ؟ .. ولمَ لا تختزن ليلة أخرى لليالي حبها معه ؟ ..

لمَ لا تداوي جراحها .. وعذابها بلقاء آخر ؟ ..

ذهبت هيفاء ..

واستقبلها كعادته في فتور ..

لكم كانت تتمنى أن ترتمي بين ذراعيه .. تسكب الشوق الذي أرقها وأسهدها ! ..

دخلا الغرفة التي كانت تشهد حبهما ..

وارتمت هيفاء على المقعد الطويل .. وارتمى بجانبها ..

وضمته اليها بقوة ..

وعاد إليها .. عاد حبيباً كله عاطفة صادقة .. وحب جارف ..

وأسكرتها كلماته .. وأذابت عواطفهاالتي انسكبت حباً وعبادة.. تنبذ كل التقاليد والقيم والحدود ..

مرت لحظات هانئة على هيفاء ..

كيف لا تعيش على ذكرى نارها ، ما كتب لها في الوجود ..

طوال العمر ..

لكم تبدو تلك الكلمة بعيدة .. طويلة الأمد .. ونحن جاهلون متى تقف حدود العمر ! ..

ودعته هيفاء .. وانسلت الى الطريق بعد أن اغترفت آخر نظرة من وجه سامر ..

خرجت .. ولفتها ظلمة الليل .. حين دلفت هي في ظلمة نفسهـا ..

وسارت كالشبح الضائع ..

إنها هناك .. مع « سامر » .. الذي تركته في غرفتهما ! ..

* * *

دوى صوت بوق سيارة تقطع الطريق مسرعة ..

ولم تسمع الصوت هيفاء ..

لقد كانت مع همسات « سامر » وقبلاته المحمومة وهي تسائل نفسهـا ..

متى تراه ثانية ؟؟ ..

وتلوى الجسد تحت السيارة التي سمع صوت ارتطامها بالجسد قوياً ..

لقد غدت هيفاء .. في لحظة خاطفة جثة هامدة .. تسيل منها دماء قانية .. وشفتاها مكوّرتان على بعضهما .. كأنها بدأت تصرخ « سامر » !! ..

ماتت وهي تترك « لسامر » ذكرى ستطمرها غبار النسيان .. وتجعلها ذكرى باهتة منسية ..

أتراه يشعر بالحنين .. ان مرّ ذكر هيفاء في خاطره يوماً ؟ ..

* * *

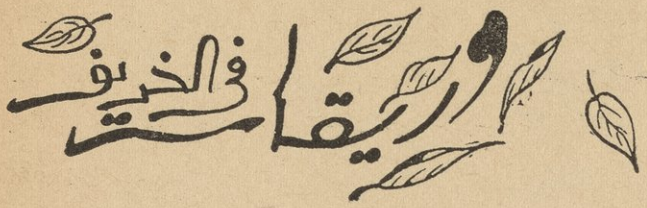

امتدت يد « سهاد » إلى بورقة .. وقالت :

اقرئي ما كتبت ! .. وقرأت :

« في عينيك غموض يحيرني ..

في عينيك حنان يدغدغني ..

في عينيك رفة تسكرني ..

في عينيك شرود .. في عينيك آلام .. في عينيك مشاعر حلوة ..

في الهدب رعشة حائرة ..

في الجفن ومضة سهاد ..

في النظرة حديث عتاب ..

في عينيك ذكرى ماضية .. هي أحلى ذكرى ..

من عينيك جمال الليل ..

في عينيك جموح الميل ..

من عينيك كل الويل ..

في عيني عبادة .. في قلبي أنت .. أما عرفت ؟ »

قلت لها :

ـ ما هذا يا « سهاد » .. ومن هو ؟ ..

ارتسمت على وجهها أشباح الألم والذكرى .. إذ قالت :

ـ « لقد كان يحبني أضعاف ما أحببته .. لكن قساوة الأقدار .. وغدر الأيام .. قد جعلا منها ذكرى .. مجرد ذكرى ..

كان يقطن بجوارنا ..

وكنت ألاحظه رجلاً .. هادئاً .. متزناً .. عميق الفهم والفكر ..

لن أنسى نظرته العميقة المحببة .. عندما ابتدأنا نتزاور .. وقدّمته الي والدته :

ـ ابني « سمير » ..

طرقت بابهم يوماً .. أطلب موعداً لزيارتهم ..

كان وجهه الذي طالعني وراء فتحة الباب .. مشرقاً .. جميلاً .. فيه غموض محبّب ..

وانسكب صوته الهادىء في سمعي .. عذباً .. وهو يرحّب بي ..

تلعثم الكلام في فمي ..

ولاحظ « سمير » اضطرابي حين دعاني للدخول :

ـ أهلاً وسهلاً آنسة « سهاد » لقد انتظرنا زيارتكم منذ أمد طويل ..

أجبته بكلمات متعثرة شاكرة .. وقد انبعثت من الداخل أصوات موسيقى ناعمة .. أسبغت كثيراً من الروعة على جو منزلهم ..

وتركزت عيناه عليّ .. فيهما إعجاب .. وعمق ..

رفرفت أجفاني خائفة .. من شيء مجهول .. بعيد ..

وأفقت من استغراقي على صوت والدته .. وهي ترحب بي ..

كانت كلمات .. ومجاملات .. لم أعِ منها إلا موسيقى حلوة .. ونظرات هادئة .. وجواً لطيفاً ..

ودعتهم بعد أن أخذت موعداً لزيارتنا .. وفي أعماقي ترسب مشاعر غامضة ..

* * *

كان القلق يملأ الأيام التي تزحف ببطء الى الموعد ..

وجاء اليوم ..

جلست أمام المرآة .. أطيل النظر في وجهي .. وفي عيني .. وفي جسدي .. كيف التف الثوب عليه برشاقة .. وداعبت الفرشاة خصلات شعري .. ونثرتها على جبيني ..

كنت أحاول بكل ما أملك من براعة في أن أكون جميلة ..

نادت علي والدتي .. وسرت بخطوات مرتبكة ..

دخلت بيتهم .. كأني أدخل الجنة التي أحلم بها ..

واستقبلنا «سمير» ببسمته المفعمة أملاً .. واستقبلتنا والدته .. التي أحببتها كثيراً .. والتي أخذت تثني على جمالي .. وقد انعكست حلاوة كلامها في تعابير حلوة على وجه « سمير » ..

ثم دعاني الى غرفته .. ليسمعني شيئاً من الموسيقى ..

دخلت غرفته مضطربة .. وجالت عيناي في زواياها .. إذ

ركن في احداها سريره .. بجانب « كومودينا » عليها ضوء صغير .. وكتاب مرمي ..

لمحت عيناي عنوان الكتاب « الزنبقة الحمراء » .. ثم جلست على كرسي طويل مغطى باللون الأحمر الوردي .. انتحيت ركنه ، وقد طالعني وجهي في مرآة أمامي ..

كانت الصفرة تشمله .. والانفعال يعلو قسماته ..

ـ أهلين وسهلين .. ما بك يا آنسة « سهاد » ؟ .. أتشعرين بشيء مزعج ؟ ..

غمغمت :

ـ .. اشكرك ..

ولعبت أصابعه بآلة التسجيل .. وانبعثت الموسيقى الكلاسيكية ثم اقترب .. وجلس بجانبي .. على الكرسي الأحمر الطويل ..

وصمتنا ..

صمت كل منا .. إذ راح يبحث بين طيّات أحلامه .. عن أشياء يتمناها .. وكم تمنيت أن أنفذ الى أغوار « سمير » واستنبط ما فيها من أمانٍ وأحلام ؟ .. ومع من ؟ ..

قال :

ـ آنسة « سهاد » .. لا أدري كيف أجرأ أن أطلب منك أن تزوريني .. فوجودك يسعدني .. فهل أنت كذلك ؟ ..

أجابه صمتي .. وانفعالات الايجاب التي انعكست على قسماتي

لست أدري كيف نفذ بطلبه هذا الى أعماقي .. وعرف ما بي؟..

قال :

ـ شكراً .. ستأتين .. أليس كذلك ؟ .. ستزورينني كثيراً ؟. فوالدتي من أصل تركي .. وترحب كثيراً بالتقائنا .. لا تهمها أقوال الناس .. فالحياة عندها فرصة للسعادة يجب ألا تضيع ..

وانسللت من غرفته مع انتهاء الزيارة ..

مددت يدي مودعة .. واحتضنها بين يديه طويلاً .. وهو صامت .. يسكب في عيني كل ما في عينيه .. من بدء عاطفة وإعجاب .. وحب ينمو ..

انسللت .. بعد سحب يدي التي استجابت لوداعه ..

وعدنا الى البيت ..

كانت غرفتي تطل على الحديقة .. ولها شرفة صغيرة تتصل بعدّة درجات توصل للحديقة .. وكانت غرفة « سمير » بجانب غرفتي تماماً .. يفصلنا الحائط الفاصل بين المنزلين ..

كما أن لغرفته شرفة .. وعدة درجات تصل للحديقة .. يفصل بين حديقتينا سور صغير .. طوله متران تقريباً وكنت أشعر طوال الليل بأنفاسه .. تتردد في أرجاء غرفتي .. مخترقة ذلك الحائط الذي يفصل بيننا .. والذي كنت أتصوره من مادة شفافة كالزجاج مثلاً ..

واصغي لحركات « سمير » .. وسكناته .. ورواحه .. ومجيئه في الغرفة .. ومتى ينام ؟ ومتى يستيقظ ؟ ..

وأخذت أزوره في فترات متباعدة .. إذ تسلل الإعجاب به وشمل

أعماقي .. وتكاثف مع الأيام .. حتى أصبح كعاصفة توشك أن تنفجر ! ..

كانت والدته تستقبلني بحرارة .. ثم تنسحب ..

وكنا كثيراً ما نتناقش في الفن .. في الأدب .. ثم أعود سعيدة راضية .. لا أحظى منه إلا بلمسة الوداع والترحيب ..

وفي ليلة ..

ثقلت أنفاسي .. وضاق جو الغرفة الخانق بوجودي .. فتحت الباب وخرجت الى الشرفة .. وغمر وجهي ضوء القمر .. وشملني سكون الليل ..

وقفت واضعة يدي على حافة الشرفة .. فاتحة صدري لأعب من رطوبة الليل ما يعينني على ضيق أنفاسي ..

ونفذت الى سمعي أصوات أنفاس تتردد مثلي ..

وأدرت وجهي .. ووجدته ..

أدار وجهه الذي بان لي بين زهر الياسمين الذي يفصل حديقتينا .. بأن وجهه بين طيات الزهور والبراعم ..

وهمس بحنان :

ـ سهاد ..

وهمست دون أن أعي :

ـ سمير ..

ولم أدر .. إلا وأنا أحمل كرسياً من غرفتي .. وأنزل الدرجات بحذر .. ووضعته أمام السور الذي اعتليته .. وتلقفتني يدا « سمير » .. الذي نزل مسرعاً .. ليلقاني ..

واستكان جسدي بين ذراعيه .. وتحت الياسمين .. هناك ..

ولأول مرة .. ضمني بقوة .. قوة الحب المتأصل في الأعماق ..

وركنت لضمته .. وقد اخذت انفاسي تلهث .. وقلبي يغوص مع همسته .. « حبيبتي » ..

واقتربت همسته من أذني .. وزحفت ..

زحفت شفتاه على صفحة خدي .. حتى التقت بشفتي .. وغبنا معاً ..

غبنا في قبل من نار .. ونور .. شمل قلبينا .. وحبنا الوليد هذا ..

ومضى الليل ..

معه .. وبين ذراعيه ..

ودخلت مع بزوغ الفجر الى غرفتي .. وارتميت على سريري .. متهالكة .. سعيدة ..

* * *

مرت أيام لم أره فيها ..

ولم أسمع في غرفته أية حركة تنبىء عن وجوده فيها ..

واعترتني الهواجس ..

إذ خلت تلك اللحظات التي عشتها معه .. تسلية مؤقتة .. واعتقدت بأنه هرب مني .. ومن منزله بسببي ..

حفزني الشوق يوماً ، لأن أطرق بابهم ، وأسأل عنه والدته ..

كانت عبرات من عينيها مخيفة .. تنذر بالخطر ..

قالت :

ـ سمير في المستشفى يا ابنتي .. مستشفى السل ..

دارت الدنيا بي .. ولم أعد أقوى على الوقوف .. مع رنة صوتها الحزين .. ولوعتها المروعة ..

وفي المساء .. كنت في المستشفى أزوره لأطمئن عليه ..

ووجدته وحيداً ..

في غرفة تطل على مسافات واسعة من السهول المنتشرة فيها أشجار الزيتون ..

كان لقاؤنا حاراً .. يكتنفه الشوق والألم ..

بكى « سمير » كثيراً .. وبكيت لبكائه ..

ضممته إليّ .. غير عابئة بما يقولون عن هذا المرض الوبيل !.

كان « سمير » كل شيء لي .. وما يحصل له .. يجب أن يحصل لي ..

قال :

ـ إن ما يسعدني في المستشفى .. كون ممرضتي تسمى .. « سهاد » فكأني معك آناء الليل وأطراف النهار ..

ومرّ الوقت ..

وودعته .. بعد أن زرعت فيه آمالا .. تعينه على المرض والوحدة .. بعيداً ..

وتكررت زياراتي ..

وكنت كثيراً ما أنسى موعد إغلاق الباب في وجه الزوار ..

فأخرج متسللة من بين الحواجز الحديدية التي تحيط حديقة المستشفى ..

وأهرع راكضة بين شجر الزيتون .. ملتفتة بين آونة وأخرى.. لأرى شبحه خلف نافذة غرفته ليطمئن علي .. ملوحة له بيدي من البعيد ..

ثم أعود الى غرفتي التي غدت موحشة .. مقفرة .. بعد بعاده عن جوارها ..

وتحسّنت صحته ..

ثم غادر المستشفى بعدما شفي مما به ..

وقررنا أن نتزوج ..

وطلبني من والدتي .. التي فزعت كثيراً من هذا الخبر !! ومن كوني أقبل مريضاً بهذا المرض . ولو كانت لديه مئات الشهادات بنجاحه منه ..

حال بيننا أهلي ..

لم تقنعهم قوة في الوجود ، بأن يضحّوا بي .. وما علموا أن رفضهم هذا .. جناية كبيرة علي .. لأني لم أعد أقبل الزواج من أحد ..

وغضبت والدته كثيراً .. من رفض أهلي لسمير .. واعتبرتها إهانة صميمية ..

ثم طلبت مني الانقطاع عن سمير .. لاعتقادها بأن حبنا الذي لا فائدة منه ..

يزيد .. ويدعم مرض ابنها ..

حيرتني الظروف والأقدار .. وقررت أن أخالف راي أهلي .. واقبل به زوجاً .. رغماً عنهم ! ..

لكن القدر .. كان أقسى ممّا تصورت .. اذ عـدت في يوم ووجدت منزلهم .. فارغاً ..

لقد انتقلوا الى غيره ليبعدوا عنّا ..

* * *

وكان يوم ..

رأيته فيه بجانب فتاة بيـدها خاتم الزواج .. وبيـده خاتم أيضاً ..

ونظر إليّ .. نظرة حب وعتاب .. وذكرى ..

ذكرى ماضية لديه .. وحاضرة لدي ..

وها نحن في الخريف ..

والأوراق الشاحبة تنتثر في الطرقات ..

تمرّ عليها الأقدام .. ولا من يعبأ بما يخلفه تحت قدميه ..

وأوراقي ..

أوراقي الخريفية .. تنتثر هنا .. بين أرجاء غرفتي .. والزمان يدوسها بقدميه ..

غير عابىء بها .. وبي ..

وسأظل أجدّدها .. وأنثرها ما دمت على قيد الحياة ..

* * *

ما أقسى الأيام ! ...

ما أقساها ! إذا شملت حياة الانسان بالحرمان واليأس ..

وما أمرّ قسوتها ان استمرت في تعذيبه حتى النهاية .. وما من ومضة تنير له الطريق ..

أو تسبغ على وجوده شيئاً من العزاء .. والسلوى ..

كأن احتماله لذاك العذاب يزيد الظلم عليه كثيراً .. بصمته ..

وبتقبّله كل ما تأتي به الاقدار ! ..

لم تكن « سلوى » شيئاً منذ الصغر ..

كل من حولها كان يقول لها .. أنها لا شيء ..

والدتها .. إخوتها .. والدها الذي كثيراً ما كانت تمرّ الأشهر دون أن يكلمها ،كأنه كان يبرهن لها بالفعل ، أنها لا شيء ..

كانت ناعمة .. وديعة ..

لكنها ضائعة .. في مشاعرها الغامضة ..

من هي ؟ ..

ولمَ خلقت ؟ ..

ومرّت سنون الدراسة الابتدائية على « سلوى » .. وهي وحيدة ! .. منطوية على نفسها ! .. دون أن تصادق إنساناً .. تمسح بصداقته جراح نفسها .. وآلام وحدتها .. ووحشتها ..

قرر أبوها ألا يدخلها مرحلة التعليم الثانوي .. بعدما كانت أختاها قد سبقتاها اليها ..

وعرفت لأول مرة عبراتها المحبوسة .. الطريق الى خدّيها ..

وسالت حارة قوية ..

وكأن آلامها كلها .. قد تفتحت عن كبتها .. وقيودها الماضية..

لتسيل غدراناً من الدموع .. وهي .. صامتة ! ..

وتحركت عواطف الأمومة .. لدى أمها ..

الوحيدة التي أطلّت الشفقة من عينيها !. فأقنعت ذلك الأب القاسي ، بمتابعة تعليمها ..

ودخلت « سلوى » المدرسة .. وقد مر على افتتاحها ما يقارب الشهر ..

ثم ابتدأت تجد في الدراسة .. وتضاعف من جهودها لئلا تفشل في شيء تمنته كثيراً .. وقيل لها أنها لن تنجح به .. لأنها لاشيء ..

كانت دائماً منزوية مع مشاعرها المكبوتة .. وصمتها .. ووحدتها ..

ضائعة بين اجوبة الف سؤال يجول في أعماقها .. ولا من يأخذ بيدها ! .. أو ينير لها الطريق ! .

كانت الكلمة الوحيدة التي ترافق سمعها وتفكيرها دائماً .. هي .. أنها لا شيء ..

وكثيراً ما كانت لياليها مؤرقة .. مشحونة بالسهاد والعذاب ..

وتتمثل لها الحياة قاسية .. موحشة .. ملأى بالحرمان من أي عطف تورق معه الراحة والاستكانة ..

كانت تداعبها الأمنيات .. والآمال مع إشراقة الصباح .. الذي كان يمسح عن أجفانها عذاب الليل .. حتى اذا ما نهضت .. وذهبت الى المدرسة .. وسمعت ضجيج الناس .. وصخب الشارع .. عادت لنفسها المنطوية .. اليائسة ..

لقد عاشت « سلوى » مع صراع مخيف .. مع الضياع ..

وتفتحت نفسها عن موهبة كانت غافية في أغوارها ..

لقد أبتدأ قلمها يخطّ صدى انفعالاتها على الورق ..

كتبت تقول :

« أيسعد النفس وآمالها الغاربة ؟ .. جمال الفجر ..

أيسعد النفس الا هذا الغروب الناري ..

تعيشين يا نفس معه كالتوأم .. ويلفّك بلوعته .. وظلمته الزاحفة ..

ولكن .. أليست آمالي في ليل عميق .. لا يعرف مداه ؟ ..

أليس الضجر حليفي ؟.. والكآبة غلافي ؟ ..

أيوجد فناء بعد هذا الفناء ؟ ..

أيوجد عدم بعد هذا العدم ؟ ..

لقد ضيّعتك المتاعب .. وعذبتك الآلام ..

يانفس ..

كفاك شكوى وهموم ! ..

كفاك حزن وغيوم ! ..

فلتطمرك الأغوار .. ولتستلب منك الأنفاس !

إن بقيت لك أنفاس ؟ ..

* * *

بلغت « سلوى » في تعليمها صف الكفاءة شهادة الدراسة المتوسطة ..

وتقدمت للفحص ..

وفشلت ! ..

وتجسدّ يأسها في هذا الفشل .. حين جاءتها علامات الفحص.. ووجدت أن نصف علامة أخرى .. كانت تكون معها ، في عداد الناجحات ..

وللمرة الأولى ..

عرفت معنى الرسوب . وذاقت مرارته .. فكأن الأيام قد تكالبت عليها .. لتذيقها من المرارة الجرعة تلو الأخرى ..

وكأن رسوبها .. كان الفرصة الوحيدة التي ينتظرها والدها .. اذ منعها من متابعة دراستها .. كانت ممانعته قوية ! ..

لم تجدِ معها توسلاتها .. ولا شفقة أمها عليها ..

ونما في أعماقها الاستسلام لكل ما يأتيها .. وما كتبته لها الأقدار ..

ركنت « سلوى » منزوية بين جدران البيت مع الحسرة التي تأكل منها النفس .. واليأس الذي يذيب منها الجسد ولم تثور ؟ ..

ومن يستمع لثورتها ؟ ..

كتبت تقول :

« ماذا رأيت يا قلب من البشر ؟ .. وعلى ماذا حصلت ؟ ..

أذاقوك المرارة والعذاب .. وخلفوك للضياع والشرود ..

زيّنت لك الأيام .. الطريق بالورود الملأى بالأشواك ..

وتركتك ترتمي بينها .. والدماء تنزف منك غزيرة .. قانية ..

رويدك .. يا قلب ..

فماذا تفيدك الحسرات والآلام ؟ ..

خلقت في الظلام .. واعتادت عيناك عليه ..

فلمَ خدعتك الشهاب ؟ ..

فلحقت بها .. باحثاً عن السعادة ..

فما خلقت السعادة لك !..

عشت أيامك في ظلمة .. فلتتممها في ظلمة ..

ما عهدتك إلا صابراً .. صامداً .. في وجه عاديات الأيام .. وعتمة الليالي » ..

وجاء العريس الذي ينتظره أهلها .. وقبلوا به ! ..

رغم أنه كان متزوجاً .. وله ولدان ..

أما زوجته .. فقد طلّقها ليستبدلها بأخرى .. وما من سبب يبرّر فعله هذا ..

ودخلت « سلوى » بيت الزوجية ..

مستسلمة لما سجّلت لها الأقدار أيضاً من مفاجآت ..

وطالعتها عيون صغيرة .. بريئة .. فيها نظرات الاستغراب ! والاستفهام ؟! ..

من ابنة في السنة الثالثة .. وصبي في الخامسة ..

حاولت « سلوى » ملاطفة الطفلين البريئين .. لكن النفور منها كان مفعماً في نظراتهما الساذجة .. وعملت جاهدة لكسب حبهما .. لكن محاولتها كانت سدى ..

فقد كان الفراغ الذي خلّفته أمهما .. كبيراً .. لا تملؤه امراة غريبـــة ..

امراة لم يرضعوا لبنها .. ولم تضمهم الى صدرها الحاني .. حين ابتدأت عيناهما تعرف الحياة ..

وأخذت تلحّ على زوجها .. بإعادة زوجته الى البيت ..

ونجحت .. لأول مرة في طلب تطلبه ..

* * *

عادت تلك المرأة « ضرّتها » تعيش معها .. ومع أولادها ..

وسعدت سلوى .. لسعادة هؤلاء الصغار .. ولو جاء من يشاركها زوجها ..

وهدأت مع صفو الحياة قانعة .. راضية .. وقد لمست في أعماقها ميلاً يتزايد نحو زوجها ..

الذي قدّر نبل مسعاها .. وأحاطها برعايته وحبه

لكن الألم الذي اعتاد مصاحبتها منذ الصغر .. عاد يطلّ عليها ..

حين لمست اهتماماً يتزايد بين زوجها .. وأخت لها مطلقة .. لعوب ..

وتجاهلت الأمر ..

لعل ظنونها مخطئة ؟ ..

ومرت الأيام على سلوى .. قاسية .. متعبة .. وهي ترى زوجها يذوب شوقاً لأختها ! .. ويزداد فتوراً نحوها ! ..

كيف تحتمل هذا النوع من الحياة ؟ .. بعدما احتملت مشاركة أولاده وزوجته ..

أتقسو عليها الأيام ؟ .. الى هذا الحدّ ..

لم يعد بها بقايا احتمال .. وصمود ..

كتبت تقول :

« لمَ غدرك يا زمان ؟ ..

لمَ حرمانك يا أيام ؟ ..

لمَ العذاب يا ربي ؟ .. لمَ الهوان في دربي ؟ ..

لمَ الشوك في طريقي ؟ ..

إنها قصتي .. قصة حبي .. قصة حرماني ..

أما ارتضيته لي يا قاسي ؟! ..

يا لي من مغرورة يوم اعتقدت أنك تقنع بحبي ! . ..

يا لي من ساذجة حين صدّقت لوعتك ! ..

يا لي من ضعيفة حين آمنت بما ادعيت . !

في أعطافي أنّات مكبوتة .. في جوانحي آهات محرقة .. في قلبي نار ..

أما تخاف غدر الزمان يا مدّعي ؟ !

أما تخاف نقمة من عذّبتها ؟ .. أما تخاف العذاب من سواها ؟.. أتؤمن بقدرتك الى أبعد الحدود ؟ ..

احذر يا حبيبي .. رغم غدرك وآلامي ..

أخاف عليك ! .. »

وغادرته « سلوى » الى بيت أهلها ..

الى جدران منزلها القديم .. تنزوي بين أركانه .. تعيش بين أوراقها .. وكتاباتها التي وجدت فيها السلوى .. والعزاء .. لما لقيته من غدر زوجها .. ودهرها ..

وابتسمت « سلوى » لشقاء زوجها .. حين جاء من خطب أختها .. وتزوّجها ..

وأفعمه الغرور .. بأنها ستعود اليه .. وأرسل لها من يستعطفها متناسياً ما سببّه لها من عذاب ، وكيف تعود اليه .. وتأمن جانبه .. وهو .. الغادر ! ..

لا .. لن تعود ..

كتبت اليه تقول :

« لا تبتسم يا عزيزي .. فقد نسيتك الذاكرة

وطويت أيامك في الثنايا المهملة !!

ان أعماقي تغوص في أمس ضائع ..

لمَ تصوّب إليّ سهامك ؟ ..

أنسيت اني مررت عليك في يوم ؟ ولم تعبأ بي ؟! ..

لقد فرشت لك الدروب سوسناً .. وبنفسجاً .. وأنت ؟ .

أنت .. الذي تركتها تذوي وتأكلها الهموم ؟! .

أتعتقد بعد هذا ، أنك تحييها بنظرة منك ؟ ..

يا لذكرى الأيام الماضية ..

أين كنت يا غافي ؟ !.. أين كنت يا لعوب ؟ !.

بيدك .. بيدك غلفلت الحزن في نفسي ..

بيدك .. بيدك زرعت فيّ بذور النسيان ..

بيدك أحلت الأيام والأماني الى شبح ضائع مخيف ..

كانت أيام عمري .. معك .. فجراً مشرقاً ..

وأنت الذي أحلتها أمسيات .. حزينة ..

لا تبتسم ابتسامة الواثق !!

لقد كان حبي بين يديك .. إناء تعبّ منه

وبيدك سفحته ..

عليك الاّ تلعب بالنار .. بعد انطفائها . !.. فليس ثمة فائدة ..

يا لك من ساذج .. مغرور .. ان كنت تعتقد أن ماخلفته يوماً ..

ستجده بانتظارك ..

* * *

لم تعد « سلوى » الى زوجها ..

بل عاشت لكتاباتها .. وعرفت الطريق الى دور النشر ..

وابتدأت تنشر ما تكتبه .. وطالعتها النظرات المتسائلة ؟ ..

من هي ؟ ..

ما دورها في الحياة ؟ ..

ما مدى ثقافتها .. وعلمها ؟ ..

وظلّت مختبئة .. تكتب وراء الجدران .. غير عابئة باسمها !..

ان عرف ! وان لم يعرف ؟ .. تريد أن تكتب فقط !. ..

التقطت « سلوى » صحيفة الصباح .. وارتمت تلك الصحيفة من يدها . !..

لقد صافح عينيها خبر مهم ! ..

مات زوجها بعد صراع بينه وبين زوج اختها .. حين ضبطهما معاً .. في منزله .. في وضع مشين ..

اضطربت أعصاب « سلوى » .. وغمغمت ..

ـ لم يتخلّ عنها حتى الموت ..

ارتمت الصحيفة من يدها دون أن تنظر الى الصفحة الرابعة ..

فقد نشرت لها قصة بعنوان « نهاية » ..

* * *

البارحة .. واليوم

البارحة سمعت رأي الرجل .. في سهرة هادئة ضمت عدة أسر ..

واليوم قرأت رأي رجل آخر .. في كلمات عبّر عنهـا في صحيفة الصباح ..

وأنا .. ورأيه .. على طرفي نقيض ؟! ..

البـارحة ..

رأيته أمامي .. رجلاً .. متزناً .. وكان مدار حديثه يجول بين الذكريات .. وبين أعوام قضاها في التخصص في باريز ..

باريز ؟! ..

بلد العجائب ! .. والأحلام الدافئة ! .. بلد النساء الدافئات .. والأيام الربيعية الدائمة .. ولو كانت الدنيا في شتاء مستديم !! ..

واليوم ...

قرأت رأي رجل آخر في الصحيفة .. يعبّر عن العواطف بأن لا مجال لها في حياة الإنسان .. بل عليه أن يختار الزمان .. والمكان .. ويستفيد من وقته .. ويستمتع بما يجمعه .. الزمان والمكان ؟ ! ..

أهذه هي مبادىء الحياة لدى الرجل ؟! ..

الإستفادة .. والمتعة .. فقط ؟! ..

وأين العاطفة في حياته ؟ .. في أغوار بذور الغد ؟ !..

والبارحة سمعته يقول :

« لن أنساها ليلة .. ما حييت ! ..

إنها ليلة بدون غد ..

كنت في باريز .. وكانت ليلة رأس السنة على الأبواب .. وذهبت الى « كاباريه » مشهور وانتحيت ركناً ، أطل منه على الكتل البشرية المبعثرة .. تصخب ماجنة مع الخمرة .. والنساء .. والدخان ! كانت تجاورني في الطاولة .. سيدة .. جميلة .. في العقد الثالث من عمرها ..

تبدو عليها سيماء الإتزان .. والهدوء ..

كانت وحيدة ؛! ..

وكنت وحيداً ! ..

ودفعني الفضول .. لمراقبتها.. وهي تحرق الليل بين الكأس.. ودخان السيجارة ..

جاءها شاب جميل .. يفور بالصبا .. والحيوية .. وطلبها الى الرقص ..

اعتذرت .. دون أن توجّه اليه حتى ولا .. نظرة .! .

كأن اعتذارها ، كان مقرراً قبل مجيئه .! ..

وجاءها الثاني .. ثم الثالث .. وهي تعتذر ! ..

انهم شباب في عمر الورود النضرة ! ..

وحرت وانا أتساءل .. ما سر تلك المرأة ؟ .. الصامتة ؟! ..

ولم أدر .. الا وقوة علوية .. تحملني من مقعدي اليها .. وتدفعني دفعاً الى طلبها للرقص ..

ونهضت ! ! .

نهضت .. منذ أول حرف خرج من فمي خائفاً ..

ارتمت بجسدها .. بين يدي لترقص ..

وجالت المشاعر باعتزاز في أعماقي .. وحفزني الغرور ، لأن أسألها عن سبب انصياعها لي ..

بعدما رفضت مراقصة البراعم النضرة ؟ ..

وكان جوابها ..

لا تحب الرقص مع الشباب الصغار .. تحب الرجل الناضج.. لاتزانه .. لعمق تفكيره .. لتصرفه الموزون ..

ضممتها الى صدري .. واستجابت لما أفعله بها ..

واتفقنا على تمضية ليلة بدون غد ..

* * *

أطفئت الأنوار في الساعة الثانية عشر ..

كانت بين يدي .. وعلى صدري .. وتسللنا الى الخارج .. الى بيتهـا ! ..

الى ليلة حمراء .. قضيناها معاً .. فيها كلمات .. وهمسات .. لا تنتسى ! ..

خرجت من بيتها .. مع بزوغ الفجر .. مترنحاً .. نشواناً .. بين أعطافي سعادة .. ما استشعرت يوماً بمثيلها ..

وحتى الآن .. لم أنس تلك الليلة .. انها في أغواري .. حارة .. قوية .. مطوية مع الذكريات .. الحلوة .. الجميلة ..

الى هنا .. توقف محدثي ..

ومن الغرابة .. أني لم أرَ على وجهه ، أي تأثير من سرده لتلك الذكرى ..

لم أرَ .. حتى ولا ومضة من الحنين .. لتلك المرأة ..

كأنها مرت .. كما يمر الليل ويعقبه النهار ..

كنت اتابع حديثه .. بغصّات تعتصر قلبي .. متسائلة :

ـ لربما تحبه تلك المرأة حتى الآن ؟ ..

ولمَ لا ؟ ..

أتختلف المرأة في باريز .. عن المرأة في الشرق ؟ ..

أم باريز .. بلد العجائب .. تبدل المفاهيم عند الجنسين ؟ ! .

وابتسمت لحديثه .. وذكراه تلك ..

كنت أودّ أن ينقلب ابتسامي كلاماً .. كلاماً صريحاً .. ينصب في اذنه .. وبين طيات ذكرياته .. كنت أود أن أقول له .. أن الحياة والسعادة ليست في ليلة واحدة بين ... ذراعي امرأة ..

امرأة يطويها الغد .. ويطويها النسيان .. حتى لملامح وجهها وجسدها ؟! ..

الحياة غير هذا !! ..

الحياة مُثل .. وإخلاص ..

الحياة غنيّة بالعواطف السامية .. الزاخرة بالمعاني الرفيعة ..

الحياة حب .. يعيش معششاً بين حنايا الضلوع .. ينخر فيها آناء الليل .. وأطراف النهار ..

الحياة عاطفة .. تحيا في الأعماق .. تُسعد .. وتشقي صاحبها .. وفي سعادتها وشقائها كل اللذة ..

الحياة عبادة وصلاة لإنسان هو بعد الإله ..

* * *

قال :

خذوا العمر كله .. وأعطوني ليلة واحدة في باريز ..

إنها ليلة من نار .! ..

ليته قال :

ـ أعطوني ليلة واحدة مع تلك المرأة ..

إنه يذكر ليلة فقط .. بين ذراعي امرأة لعوب ، عرفت كيف تسعده .. وتهبه ساعات ماجنة ..

لكنه للأسف لا يذكرها بل يذكر اللحظات معها ..

كنت أودّ أن أقول له :

النار غير هذا يا صديقي ! ..

النار مشاعر تستعر بين الضلوع ! .. لا تجرؤ الشفاه الحيّة .. الخجولة .. أن تصفها .. أو تصبّها ..

أهذه هي الحياة عند الرجل ؟ ..

ليته يتفهم عواطف المرأة جيداً .. ويتفهم تفكيرها .. وسمو عواطفها نحوه

إنها تحب وتشقى .. في سبيل من تحب ! ! .. وتظل الأعوام، على ذكراه .. ترتجف لسماع أسمه .. أو صوته .. تعبد له الطريق الذي يدوسه بقدميه .. رعاية وحناناً .. وذكرى حلوة ..

تتألم لحوادثه .. وهو عنها لاهٍ .. بليالٍ حمراء .. وفرص ثمينة ؟! ..

يعيش بين الآلاف من النساء .. وهو الوحيد في حياتها .. في أيامها .. ولياليها المؤرقة ..

إنها العبادة الصادقة .. والمشاعر البريئة التي تغلف حياتها بإطارها ..

أتساءل دوماً :

ـ متى يدرك الرجل حقيقة مشاعر المرأة ؟ ..

لو نظرت يا صديقي الى وجه فتاة أعرفها .. ورأيت تعابير العبادة التي ترتسم على محياها ..

كلما ذكر اسم الشخص الذي تحبه .. لكنتَ ركعت ساجداً .. مقدّراً نبل عاطفتها .. وحبها المخلص .. الذي لا يخالجه شيء من الأنانية ..

لو رأيت اجفانها .. المسبلة .. وخلفها تتجول الدموع حيرى .. صامدة .. لا تعرف الطريق الى الخدود بل تعرف الطريق الى الداخل .. الى القلب المعذّب ..

إنها تحبه فقط .. لأنها تحبه .. وليس لأنه لا يحبها ، أو حتى لا يشعر بوجودها ..

إنه كفيره ضائع .. بين المتعة من ألف امرأة .. رغم أنه متزوج وله أولاد ..

تحبه ! .. وتحب حتى زوجته وأولاده .. ما فكرّت يوماً بأنه يجب أن يكون لها ..

لها وحدها ..

إنه لحياته .. لظروفه .. وهي ؟ . نكرة في حياته ! تعيش على حبه .. في أعماقها وفي دروبها ..

إنها الحيرة التي تعذب المرأة .. حيرتها من البارحة .. واليوم .. وغد ..

وحيرتي ليس لها آخر .. بين أحاديث الرجل البارحة .. وآرائه اليوم ..

بين عواطفه .. وعواطفها ..

وبين مفهومه لها .. ومفهومها لتلك العواطف ..

ضائعة

في عينيها شرود ! . وحيرة ! ..

ومن خلال الشرود ، تنعكس آلام صامتة ..

تتصنّع الابتسام .. ووراء ابتسامها هذا ، مرارة جارحة .. خلفتها لها الأيام ..

إنها ضائعة .. حيرى ..

وحيدة في مشاعرها .. تائهة في الطريق الذي رسمته لها الأيام ، وارتضته لها الأقدار ! ..

أطفالها عشرة ..

وزوجها ؟ ! .. إنه آلة صماء .. لا يحس ولا يشعر ..

إنه عالة في البيت .. ذلك البيت الذي هدّمه بالبطالة ، ثم عادت هي تبنيه ! ..

تبنيه على أكتافها التعبة .. العارية ! الا من خرق بالية ..

أيّة مشاعر هائئة ؟ تريح ذلك الزوج ، وهو يرى زوجته تأتي له بالمال ؟ ..

ومن أين ؟ ..

لقد سيطرت عليه عاهة البطالة .. وعاش على حساب زوجه .. على حساب شرفه المثلوم ! ..

وهل به بقية من مشاعر ، ليحسّ أن شرفه قد هُدر ؟ ! ..

عرفت قصتها من أقربائها ..

كانت هادئة ، كالملاك بين جدران بيتها ..

قانعة بالنقود القليلة التي كان يكسبها في البداية ..

ومع مرور الأيام .. أتاها الولد تلو الولد ..

والأب ؟ .. في البيت دون عمل ..

وتعبت عيناها من البكاء .. وأولادها يتضورون جوعاً .. تطوي الليل وأنين الجوع يطنّ في أذنيها .. يتعالى من أفواه أطفالها ..

ويبزغ الفجر .. وهي تلمس القوى الواهية .. منتشرة أشلاء محطمة ، على الفراشين الباليين اللذين تملكهما ، واللذين أتت بهما من قريتها .. عندما تزوجت ..

ليتها لم تأتِ الى المدينة ؟ ..

لقد ومضت النجوم أمام عينيها كثيراً ، عندما جاء من يهمس في أذنها :

ـ إنه شاب من المدينة يخطبك !! ..

غزت خاطرها أحلام براقة.. اذ تناست ابن عمها.. وحبهما..

أتعيش بقية عمرها في القرية ؟ تنبش الأرض .. ترعى الحقل.. وتعود في المساء مع الأبقار ؟ ..

لا .. لا ..

إنها أحلام ساحرة .. ستحققها .. ستعيش في المدينة ..

ودلفت مزهوة الى السيارة .. الى جانب ذلك الشاب الأسمر الجميل ..

فارس أحلامها ! ..

واستقبلت المدينة فرحة .. إنها المدينة ؟ ! ..

ذلك العالم الواسع .. المملوء بالأسرار والخفايا .. الأضواء تبهرها .. الضجّة تلفح سمعها .. والناس يمرّون بألبستهم الزاهية ..

ستغدو مثلهم ..

وابتسمت :

إنها المدينة .. الحلم الخالد في روحي ! ..

* * *

لقد خلعت عنها ثوب القرية الى الأبد .. وأتت مع ذلك الزوج ،

تتيه فخراً واعتزازاً .. أتت لتعيش بين جدران تلك البيوت المتطاولة الى العلاء ..

ومرت سنوات ..

كانت فيها راضية .. ترعى طفليها .. تطيع زوجها ما استطاعت الى الإطاعة سبيلاً ..

وكثر عدد الأولاد مع مرور الأيام .. وكثرت الأوقات التي يمضيها زوجها في البطالة ! ! ..

لا يحثّه شيء من السعي وراء العمل .. أو الرزق ..

ونبّهته الى ذلك ..

حثّته راجية .. أن يبحث عن أيّ عمل ، يسدّ به رمق أطفاله الجياع .. وبطونهم الخاوية ..

كانت أنّات أطفاله تنسكب في أذنيه ، ولا من يسمع ..

وكررت الطلب على مسمعه .. وأسمعته الآهات .. فلم يرعو .. ولم يفهم ..

وليس به علة تقعده عن العمل .. وبيده مهنة لا بأس بها ..

لكن الفراغ جميل .. ولذة الاستمتاع بالبطالة قد استبدّت به ..

ولم يستمع لنداءاتها المتكررة .. ثم غادرت محرابها تعمل ..

غادرت جدران بيتها يائسة .. غير عابئة بما ينتظرها خارج هذا المحراب ..

واشتغلت في البيوت .. وامتدت إليها الأيدي تداعبها .. وهربت ..

هربت الى محيط أوسع .. الى الفنـادق .. الى المحـلات الكبرى ..

وزحفت آثار النعمة تشمل الأولاد .. وترفرف على وجوههم ..

ومن يدفع الثمن يا ترى ؟ ..

إنها تلك الشابة التي غادرت قريتها تحلم بالحياة الطيّبة .. في المدينة .. فإذا بها ينتظرها شقاء أفزع ممّا خلّفت .. وتبدّدت احلامها أدراج الرياح ..

هربت من العمل في القرية .. لتعمل في المدينة ..

المدينة ! حلمها البرّاق ..

ليت الأيام لم تفجعها في ذلك الحلم ؟ .. أو ليتها أبقتها في جو العمل .. فقط ؟! ..

وامتدت اليها الأيدي تفرش المال أمامها .. وغزا بريق النقود عينيها ..

أمتدت يدها تعبث بالمال .. وشعرت بلذة غريبة ..

لمَ لا تحصل على الثمن دون تعب ؟ .. طالما في المنزل من ينتظرها دائماً ليقبض ثمن أتعابها ..

واستسلمت للإغراء والانتقام ..

انتقمت من ذلك المسمى زوجاً لها .. وانتقمت من نفسها التي خدعتها بتركِ ابن عمها وقريتها ..

وأراحت جسداً هدّه العمل والجري وراء لقمة العيش ..

* * *

انفضّ الأهل والأصحاب عنها .. ولاكت الألسن سيرتها ..

ولمْ تعبأ ..

ولمَ تعبأ ؟ ..

لقد سدّ الكل آذانهم عن صوتها .. عن صرخة أطفالها الجياع ..

حتى ذلك الإنسان الذي يبتسم مزهواً لأنّه زوجها ! .. قد تصامم في الماضي أيضاً ..

وتمادت في السير في طريقها الشائك .. وعبدّت طريق أولادها نقوداً وحلياً تجمّل أيديهم ..

وانسكبت الملامة ناراً في أذن زوجها .. ولم يسمع

وانسكبت تلك النار في آذان أولادها .. ولم يسمعوا ..

لقد امتلأت بطونهم ، وسعدت أيامهم .. وكانت وحدها التي تدفع الثمن ..

ما أغرب قساوة الظروف ..

كيف انعدمت مشاعر تلك العائلة ؟ .. وتصامم الكل عن نداء الكرامة .. إزاء فرد من أفرادهم ..

مسكينة ! ..

لا ألومها .. بل ألوم ذلك المجتمع الظالم .. الذي ينشد الخطيئة .. كأنها الوسيلة الوحيدة لكسب العيش ..

ألوم ذلك الإنسان الذي أخذ بيدها في الحياة .. ورماها بين الذئاب والأشواك ..

ولمن رماها ؟ ..

رماها لرجال أمثاله .. تفتقر نفوسهم الى الضمير والوجدان .. يطلبون اللذة الحرام ، لقاء دريهمات يلقونها الى تلك المحتاجة البائسة يزرعون لها الدروب .. أمان وآمالاً مزيّنة بالخطيئة المحرمة ..

هربت من القرية الى المدينة .. لماذا ؟ ..

هل في المدينة سوى المدنيّة الزائفة ؟ ..

لقد تركت قريتها ، ذلك العالم الرحب .. الواسع الأفق بين الحقول الخصبة والسماء الصافية .. بين الزهور التي لم تدنّسها يد الإنسان وفيها الإنسان الذي نشأ على حب الأرض والعمل .. لا يعرف الكلل ولا الملل ..

لقد خدعتها المدينة وجرفتها بتيّارها المزّيف .. هربت من الطهارة والإخلاص ، لتعبث بها أيدٍ قذرة مدنّسة ؟ .. انها المدينة الملأى بالذئاب البشرية المفترسة ..

أما كانت أمسياتها أعذب .. مع ابن عمها ، الذي كان يحبها بإخلاص .. ويخاف عليها من رعشة النسيم .

يغار عليها حتى من الفراشات الحائرة ..

لقد سُدلت على عينيها غشاوة برّاقة .. أعمتها عن الحب .. إنها ضائعة ..

خدُعت بشاب جميل غزا قلبها .. وقريتها .. ونقلها الى أجواء لم يكن هو أهلاً لحمايتها من قذارة البشر ..

فقدت الحب والشرف .. وكسبت شفقة « لا تسمن ولا تغني من جوع » .. وسمعة سيئة ترافقها مدى الحياة ..

وغابت أخبارها عني .. وجاء من روى لي نهايتها المحزنة ..

لقد انصبّت عليها قذارة البشر أمراضاً تفتك بها .. ورمتها طريحة الفراش .. وحيدة .. في غرفة منزوية من المدينة ..

وتخلّى عنها زوجها .. وأولادها !! لأنهم اعتادوا الأخذ منها .. لا العطاء ..

* * *

جاء ابن عمها .. يسأل عنها .. بعد أن استقصى أخبارها .. وعرف قصتها ..

ووجدها في غرفة .. منسيّة .. ماتت منذ أكثر من أسبوع..

إذ ارتدّ صامتاً .. واجماً .. تسيل دموعه حرقة .. ومرارة..

وواراها التراب .. ثم عاد الى قريته الهادئة النائية .. يحمل بين جنبيه حسرة على تلك المسكينة التي جرفها تيار الأحلام .. ولم ترحمها قساوة الأيام ..

لم يرحمها الزوج .. لم يرحمها الأولاد.. ولم يرحمها المجتمع..

لعلّ الله يرحمها .. ويعفو عنها ..

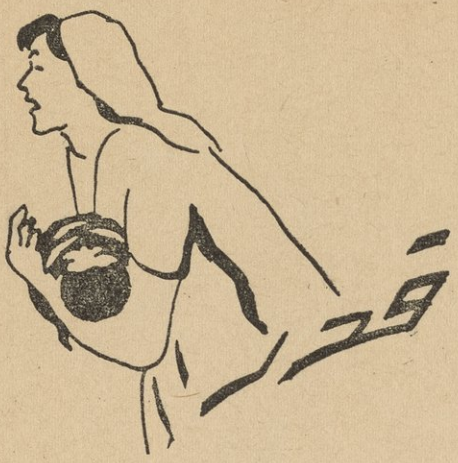

أسرعت « هالة » عائدة الى البيت من عملها ..

في قلبها ثورة صامتة ! ! ثورة من الأقدار وجحودها . ! ..

أمها مريضة ووحيدة ! .. أمها طريحة الفراش .. منذ شهور .. تعيش على انتظار ابنتها كل يوم .. وتلقاها في وداع النهار لأوائل الليـــل ..

ولمعت دمعة على خد هالة ! ! مثلما تلمع قطرة الندى بين أوراق النرجس .. وطوتها السبل .. والريح تلفح وجهها .. تمسكت بمعطفها وحثت الخطى .. وتراءت لها الـدروب كالهموم طويلـة لا تنتهي ..

وأخيراً .. وصلت لاهثة .. وارتمت على يدي أمها تتحسسهما ..

وتسألها عن حالها ؟ . حين رفرفت أجفان الأم .. ثم جاءها حنان أمها بصوت يحاكي وشوشة الناي رقة :

ـ إنني بخير يا « هالة » ..

وانسابت دموع حرّى على خدّي هالة .. وهي تتصنّع ابتسامة تخفي وراءها غصات أليمة ..

وامتدت يد الأم تعبث بخصلات شعر « هالة » .. وهي في ألم وشرود ، ! .

حولت الأم وجهها .. ونظرت عبر النافذة .. كأنها تبحث عن أسرار الأيام والليالي ..

انقضى النهار متنهداً بين جدران البيت .. وغابت الشمس وهي تترك قبلة الوداع على زجاج النافذة ..

خيّم سكون وادع .. على هالة وأمها .. وبدا الكلام صعباً ، حتى قطعته الأم :

ـ لنتكلم يا هالة .. إنني أشعر بقواي تتسرّب مني رويداً رويداً .. أنا على شفا الهاوية .. وأنت يا هالة ؟ سأغادرك يوماً وأخلّفك للوحدة والوحشة .. كيف يكون حالك ؟ ..

هل تحملين لي الكره لأني حرمتك والدك .. وخلفتك للقلق والعوز ؟ ! .. اذكريني بالخير يا هالة ! .. واذكري آلامي التي مرّت عليّ ..

اذكري أن والدك سبب تلك الكآبة الخرساء الجاثمة على صدرينا ! ! .. لا تسعفني قواي بسرد كلّ ما مرّ عليّ .. وهناك

في خزانتي تجدين اعترافي بين رزمة أوراق عاشت معي وشاركتني حبي وأفراحي وآلامي .. خذيها يا هالة وأقرئي عذاب نفسي ودموعي المدفونة بين طياتها ..

أسرعت هالة الى الخزانة تفتحها .. تفتش عن أوراق أمها .. لتشاركها آلاماً ما تجرأت يوماً أن تسألها عن سببها لئلا تزيد في حدّتها .. ثم فكّتَ شريطاً أزرقاً ربط بعناية .. وامتدت الصفحات أمامها تصوّر لها خيال فتاة في مثل عمرها .. في أولى درجات الحياة ..

« أيها القدر .. أيها الليل .. أيتها الموسيقى الساحرة .. أيها القمر الحالم .. ما فعلتم بي ؟ وما فعلتم به ؟ ..

لمَ جمعتني به يا ليل ؟ وخططت لي حبه في صفحتك يا قدر ؟

لمَ أسكرتني يا موسيقى ؟ وتركتني لقمة سائغة بين يديه ؟ ..

لمَ داعبت أنفاسك أنفاسنا يا قمر ؟ ..

لمَ أرسلت لنا شعاعاً من دنياك الساكنة الحالمة .. ورميتنا بين أحضان عواطفنا التي اشتعلت ..

لم تجذبنا الأقدار وتعود لتحاكمنا على ما فعلنا ؟

كنت معجبة به أشد الاعجاب .. بطوله الفارع وعينيه الخضراوين .. اللتين تنقلان المرء من شاطىء الواقع الى شاطىء الأحلام وهي تمخر به عباب محيط ذهبي بعيداً عن شواطىء الزمن ..

وكان الخوف يتملكني كلما صادفته .. وأخاف من نفسي ..

لذلك كنت كثيراً ما أتجنب الاجتماع به .. حتى جمعتني به الأيام في نزهة .. وصافحني متسائلاً :

ـ ألست ذاهبة الى حفلة الليلة في « د » ؟ .. وكنت فعلاً ذاهبة اليها ..

أجبته بإيماءة من رأسي أني ذاهبة .. حين مدّ يده مصافحاً بتودد ظاهر ..

ـ الى اللقاء إذاً ..

وجاء المساء ..

وذهبت الى حفلتنا هذه والسعادة تغمرني وشيء من المجهول يخيفني .. وجلست في مكاني .. صامتة .. أسبح مع الموسيقى التي تلاعبت بقلبي وعواطفي .. وطرت مع أحلامي على أجنحة ترفرف وتتراقص .. مع ليل .. وهدوء .. وموسيقى ..

وجاء محيياً .. وأخذ مكانه بجانبي ..

وانطلقت نفسي مع نفسه ..

مرت لحظات .. لحظات حلوة .. هانئة .. وقد سكب فيها كلامه في أذنيّ المرهفتين لحديثه بكلمات متقطعة محببة . . .

انتهى حفلنا والليل قد انتصف .. حين استأذن متلطفاً في مرافقتي ليوصلني بعربته الى البيت ..

سكتُّ خوفاً من أن يشعر بخوفي ..

ودلفت بنا السيارة في الأزقة الهاجعة .. وانحرفت الى طريق طويل يبعد عن بيتنا ..

اسكتتني نظرته وابتسامته حين قال :

ـ لنتمم ليلتنا في جولة قصيرة نرى القمر ..

وخفف من سرعة السيارة .. ولفنا سكون الليل وهيمن علينا وفي عواطفنا أصداء الخمرة التي شربناها من الموسيقى .. واختلطت انفاسنا ودقات قلوبنا بسحر الليل والقمر ..

عدت الى بيتي بعد مرور ساعات .. على انتهاء الحفل .. عدت مترنحة .. متهالكة .. حول أنفاسي عبير صدره .. وعلى خديّ لمسات خده .. وبين يديّ .. قلبه وحبه !! ..

تحسست وجهي وأنا مستلقية على سريري .. الذي كثيراً ما ضمّني وحنا عليّ في أفراحي وآلامي .. ودفنت وجهي بين طياته أبثّه الشكوى ..

وكرّت بي الذكرى عائدة الى طفلة في العاشرة من عمرها . عندما ابتدأت أدرك ذلك الشقاق المستحكم بين والدي ووالدتي ..

كنت في الصباح أسمع أصواتهم تتنافر .. وتعلو .. وتهبط .. ويسود الوجوم .. ويمتد أياماً وأحياناً شهوراً ..

وكنت في المساء أنطوي على صمتي وكآبتي ..

كنت أنظر اليهم بعين ملؤها الخوف والتساؤل .. وتلفّني جدران غرفتي .. وأنا أجلس الساعات ساهمة شاردة .. أحاول فهم سرّ الألم في حياتنا الذي لم أكن أدرك كنهه بعد ..

وتكونت في أعماقي خيالات لأيام تعيسة قاتمة ..

كنت رغم صغري أدرك أن على والدتي مسؤوليات لم تفهما حقها .. عليها أن تصمد للعاصفة .. أن تسكت كلما ثار والدي ..

لأنه الرجل .. وله الحكم المطلق .. عليها الا تجادله وتوسع شقة الخلاف بينهما ..

وكنت بطبيعة الأنثى أشعر بأنني سأتزوج يوماً .. وعليّ أن أكون لطيفة .. طيّعة .. لا أجيب على ثورة رجلي بإيماءة حتى تأصلت في نفسي روح الخضوع والاستسلام للأقدار .. وكم جرّ عليّ هذا الخضوع من ويلات ؟ ؟ ! ..

سارت السنون وأنا في انطوائي وصمتي .. أقابل الإساءة بالغفران .. والغضب بالصمت .. حتى رأيت نفسي شابة تبلغ الثامنة عشر .. عاشت بمعزل عن الناس .. وخافت الناس .. وتوجّست شراً منهم .. رغم أنّه كانت لي عدة صديقات .. كانت صداقتهم الموئل الوحيد الذي ألوذ اليه .. وشاطىء الأمان الذي أرسي عليه بسفينتي الضائعة ..

وتعرفت عليه .. كان أخاً لإحدى صديقاتي .. وكانت هذه الليلة المعهودة بيننا ..

وشملني الخوف والقلق وأنا أعود من ذكرياتي هذه حتى خفف من هذا الخوف طلوع الفجر .. حيث تجدّد الأمل في نفسي في سعادة بدأت أحبو اليها وأعيش في فيء ظلها ..

وتزوجته ..

عشت معه سنوات سعيدة .. عشنا على الليالي الحلوة .. على الأيام الهانئة الرضيّة ..

ورفرفت السعادة أكثر بأجنحتها الوادعة في سماء وجودنا حين

جاءتني ابنتي « هالة » .. حيث أضافت لحياتنا معنى جديداً من معاني الهناء والراحة ..

وكبرت ابنتي .. وبلغت الرابعة من عمرها .. ونحن هانئان لا يعكر صفو هناءتنا حزن ..

وانطلقت بنا الأيام الى أجواء جديدة .. من رحلات .. وسهرات مع بعض الأسر من أصدقائنا .. إذ وجدت في انطلاقنا هذا .. مورد سعادة أخرى ننهل منه ..

لقد حملت لي الأيام وتمخضت عن مفاجآت لم أكن أتوقع حدوثها .. ولم أكن أدري حينذاك أن السعادة سراب .. وأن ليالي الصاخبة تلك ستتحول الى ليل مدلهم ران على نفسي وعذبّها ..

لمست في زوجي ميلاً الى « ن » .. وهي فتاة لعوب . .عرفت كيف تخفي مساوئها بنظرات تغري الرائي الساذج ..

وتجاهلت ميله اليها ..

كم من ليالٍ قاسية مرت عليّ وتحملتها ؟ ! ودفعت الثمن من أعصابي غالياً ..

كنت أقارن بين هدوئي وصخبها .. بين انطوائي وانطلاقها.. بين حيائي حين ينظر اليّ رجل نظرة إعجاب وبين استجابتها لنظرته واعجابه ..

لقد أصبحت عضواً لا زباً في سهراتنا ورحلاتنا .. وهكذا أخذت ألمس حبي الذي كان يذوي في قلبه ليحلّ محله حبها ..

كنت في سكوتي مجرمة ! .. مجرمة لأني طويت ضلوعي على آلامي وكبريائي التي جرحت .. وتجاهلت حبهما ..

أما كان أحرى بي أن أنبهه ؟ .. أن ادافع عن حبي المهدور ؟ .. عن سعادتي التي ذهبت أدراج الرياح ؟ .. عن آلامي عندما يخاصر تلك المرأة ويضمّها .. يضمّها الى صدره .. ويطوي الليل يرقص معها .. أمام عيني ..

أنا التي أحببته .. أنا التي عبدته .. وتوجته ملكاً على قلبي .. وهدرت دمي على مذبح حبه المقدس ؟ ! ..

ومرت الأيام .. وساءت طباعه .. وساءت معاملته لي بتردده الكثير على بيتهم .. وسكوتي على جرحي .. حتى أصبح يكيل لي الشتائم إذا ما تعرضت للحديث عنها .. عن انطلاقها .. واغرائها المشجّع ؟ ! ..

وكنت الوذ من آلامي الى ابنتي « هالة » اغسل وجهها بدموعي .. واضمّها الى صدري التعب ..

وأخيراً ثارت ثورتي .. ثارت في ليلة أُهنت بها .. اذ كنا في سهرة من سهراتنا الصاخبة تلك في بيتنا ..

استقبلتهم والبشاشة تخفي وراءها غصات اليمة في خافقي .. ومضى الليل .. وانا أرقب غرامه ونجواه لها .. وحركاتهما المخزية .. ثم فقدت أعصابي مع وداعهم .. وتهاويت على أول مقعد صادفته .. وسالت دموعي حرّى على وجنتين قد أضناهما السهر والقلق .. وكأن دموعي كانت نذير شؤم عليه ، بعد ليلته الحلوة .. وبدل أن أراه يتساءل حانياً على حالي وبكائي .. أخذ يكيل لي الشتائم والصفعات .. بيديه .. اللتين كانتا منذ دقائق تداعبانها .. وتبثانها الغرام الصامت ..

ازعجته غيرتي ؟ ! .. كثيراً .. وكثيراً ..

وقد قابلت الإهانة بصمت ورضوخ .. ومضى ليلي بين دموع وزفرات وأنين .. حتى بزغ فجر جديد في حياتي .. إذ أخذت ابنتي هالة .. وانسللت هاربة منه ومن بيتي ..

مرت سنوات نظمت خلالها أمر معيشتي .. ومورد رزق ضئيل من اعتمادي على نفسي .. ثم طويت هذا القلب المجروح على أحزانه .. وما أذاقه ذلك الغادر القاسي ..

إذا كبرت يوما يا ابنتي ونضج تفكيرك ، وأصبحت أنثى يا فعة .. اقرئي كلامي هذا .. والمسي بين السطور العفة التي عاشت معي .. والضمير النقي الذي هداني .. وعلى نوره كيفت حياتي ..

لو تدرين يا ابنتي كم صارعت عوامل الشر في نفسي ! ! وكم حثتني على أن أسقيه الكأس الذي سقاني منه ! ! وأن انطلق في جوها الصاخب .. واستجيب لرغبات المداعبين ، لأذيقه طعم ليال مريرة تجرعتها صابرة .. وتعود نقاوة نفسي .. وتتغلب على الشيطان والشر .. وأعود نقية طاهرة ..

ثم وجدت الحل الصحيح في أن أهرب بك .. وأعيش بعيدة عنه وعن حبه .. وغدره ..

سامحيني يا ابنتي وعيشي نقية كما عشت .. واذكري آلام امك وأحزانها فتعذرينها .. »

انتهت هالة من قراءة مذكرات أمها وقد انتصف الليل .. حين

زحفت الى قربها .. ووجدتها غارقة في نومها كالملاك .. وامتدت شفتاها تطبع قبلة على تلك الخدود الشاحبة .. كأنها في معبد تهابه وتقدسه .. ودلفت الى جانبها في الفراش .. وأخذتها سنة الكرى وقد أسلمت أمرها الى ما يخبئه لها القدر ..

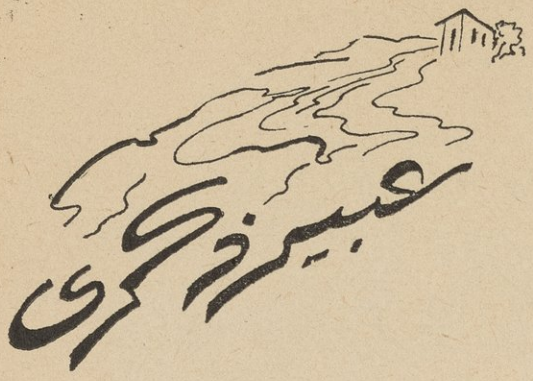

كنت في الثامنة عشر عندما همس الحب لي أولى همساته السحرية .. إذ نقلني من دنيا واقعي المؤلم الى دنيا زاخرة بالأحلام الحلوة الجميلة .. وكان حبي لصديق والدي « عادل » يفوق التصوّر حين تسرّب الى قلبي وملأ فراغه ووحشته .. وأسبغ عليّ من حنانه وعطفه ، ما جعلني أسعد بعد حرمان .. وأهنأ بعد شقاء ..

توفيت والدتي قبل سنتين .. وتركتني أعاني مرارة الوحدة وانا أفتقد عطف الأم وحنانها .. حرمت من مناداتها ومناغاتها وما أحوجني الى الارتماء على صدرها والاستعانة بحبها لي .. وآرائها السديدة القويمة ..

وتعرفت على « عادل » .. ووجدت فيه إنساناً مثالياً .. انه في منتصف العقد الرابع .. جميل المحيا .. مديد القامة .. على

سيمائه مسحة من الحزن الدفين .. قد تكون كآبته الحزينة سبب تآلف روحينا ..

كان يشعر بوحشتي .. ووحدتي .. فيعزيني بزياراته المتكررة .. ويسبغ عليّ بوجوده كثيراً من الطمأنينة التي طالما افتقدتها نفسي منذ زمن بعيد ..

وفي يوم ثلاثاء .. حمل لي ذلك اليوم بين طياته مفاجأة لم أكن أتوقعها .. جاءنا عادل لنذهب معاً الى السينما .. واعتذر والدي .. وذهبت معه لوحدي ..

جلست بجانبه في الظلمة الساكنة .. وكانت قصة الفيلم تدور حول فتاة فقدت أمها .. وعاشت مكرهة مع زوجة أبيها الظالمة ..

وعشت معها في آلامها .. ودموعها .. وهمس عادل :

ـ لمَ الدموع يا نادية ؟ .. دعيها للأيام فهي مليئة بما يبكي !!

وتحسست يده يدي في الظلمة الشاملة .. ثم تلاقت أصابعنا في عناق محبب .. مسكر .. سرت به النشوة الدافئة في أعماقي .. واشتدت خفقات قلبي .. قلبي المتعب الذي غاص في أعماقي المرتعشة السكرى ..

وتلاشت أمامي مناظر الفيلم في لحظات سعيدة .. لست أدري كيف غفا عنها الزمن الغادر ؟ .

غادرنا السينما .. وجلست بجانبه في السيارة التي سارت بنا في الدروب الهاجعة وأنا ثملة من خمرة كأس بدأ يداعب شفتي كأس الأمل والسعادة ..

كان صامتاً .. شارداً .. مثلي ؟؟! ..

ثم صحونا من صمتنا هذا عندما توقف أمام البيت.. وودعني.. فأسلمته يداً مضطربة تستجيب لوداعه ..

ودخلت بيتي وأنا أتساءل .. هل الحب شقاء أم هناء ؟ .. لست أدري !! كل ما أدريه انني كنت خائفة !

ما ذنبي في حبي هذا أيها القدر ؟ .. سل عني أحزاني .. وظروفي .. سل عني الليل وسحره .. والظلمات وسكونها ..

سل حياتي الفارغة .. وسله عن حنانه الذي شملني بعد طول ظمأ وحرمان ..

وجاء الخريف .. جاءنا بأيامه الحلوة .. وشحوبه الذهبي .. أليس عجيباً أن يحبّ الربيع الخريف ؟؟ ..

ثم ما لبث الشتاء أن حرمنا من أيام الخريف الحلوة .. الأيام التي أعشقها .. وأرى فيها تحول الجو كتحوّل كل شيء في الوجود .. حتى العواطف .. حيث أسلمنا تحوله الى الليالي العاصفة والأمطار الغزيرة .. أسلمنا الى العزلة الموحشة .. كنت أعيش مع عواصفه ورعوده .. ووحشة لياليه .. لحرماني من بعض زيارات عادل لنا ..

ومرت ليالٍ في سهاد .. وعذاب .. من أنا ؟ ولماذا خلقت ؟ .. هل أنا الا خيال معذب يطاف به في دنيا الأحزان هل أنا الا شبح ضائع في غياهب الزمن .. هل مررت بدنيا أحد الا وطوتني عنه يد النسيان ؟ .

حياتي مرار وصبر .. وجودي تائه ضائع .. تتقاذفه أمواج

الحرمان .. قلبي معذب مسكين .. جسمي خيال شارد في طرقات العذاب .. تبتلعه الدروب وتغيّبه في ثناياها المجهولة ..

ومرّ الشتاء بطيئاً متكاسلاً .. وأتى الربيع أخيراً ..

أتى ببشائره .. ودفئه الذي سرى الى نفسي وأحاطها بلمسات من التفاؤل .. كنا نتمتع بإشراقة أيامه في جولات نتزوّد من عبق زهر اللوز والمشمش .. ونزيّن بيتنا بأغصانها الفوّاحة العبير .. ذلك العبير الذي كان يسكرنا برائحته في الليالي التي تحنّ لفراق الشتاء .. ويعاودنا فيها الهواء البارد.. فنحتمي منه بين الجدران..

وفي ليلة .. زارنا عادل .. وعشت معه على انعكاس نور خافت .. وسبحت معه في أجواء أسعدتني كثيراً ثم طلب مني والدي أن أعزف لهم شيئاً على البيانو .. وسرت الأنغام مستمدة من ذوب نفسي وروحي ..

وحلقت الى عُالي ساحرة .. على أجنحة تتراقص فرحة مستبشرة بصفو الأيام وحلو الأحلام ..

لكن ذكرى أمي الراحلة .. كانت تعاودني في أحلى أويقاتي .. لمَ لا تشاركني فرحي وترحي ؟ ..

وشعرت بلذعات غريبة لدموع تجمعت خلف المآقي .. تركتهم هاربة الى غرفتي .. وأنا اكبت نشيجي وأنيني ..

طرق سمعي وقع خطوات تقترب .. واجتازت الغرفة بهدوء .. ثم أحسست بيد حانية تتحسس كتفي ..

أدرت وجهي المخضل بالدموع ورأيته .. رأيت عينيه .. فيهما خيال دموع .. فيهما الشفقة تحنو علي ..

وسكنت الى لمسة يده وقد سيطر عليّ شعور غامر من الراحة بعد الألم ..

ـ ما بك يا نادية ؟ ..

ـ لا شيء ..

ـ أنت زهرة يا نادية .. زهرة متفتحة للحياة .. فلم هذه الكآبة ؟ .. لمَ الحزن ؟ . والدك حائر في أمرك وقد أراني احترت معه .. هل استطيع تعزيتك اذا قلت لك أن الحياة لا تقف سعادتها بفقد شخص معيّن ..

الحياة كفاح وأمل .. وأنت في أول الطريق .. فلمَ تعذبين نفسك ؟ .. استقبلي الحياة باسمة .. فمن كان له مثل جمالك وجمال نفسك الهادئة واحساسك المرهف يحق له أن يتفاءل ويهنأ .. والدك صديقك .. وأنا صديق ثان .. فهل يسعدك هذا ؟ ..

واحتضنني الابتسام .. صديقي ؟ .. كم تحمل لي هذه الكلمة

من معان واسعة عذبة .. هفت لها نفسي وتمنتها .. وأجبته بصوت تمشى الأمل فيه ..

ـ تسعدني صداقتك كثيراً يا عادل ..

شمل الفرح عينيه .. ثم زحف الى فمه .. وابتسم مرتاحاً لكلامي ..

وأخذت بنصيحته .. إذ بدأت استشعر أشراق الحيـاة .. مستمدة من روح أمي الراحلة .. وعطفه وحبه زاداً يحفزني الى المسير على الأشواك .. بعدما تخلفت كثيراً عن مثيلاتي ..

كانت أولى الدرجاتْ التي ارتقيتها في سلم النجاح .. هـو نجاحي في البكالوريا .. إذ فرح والدي كثيراً به وشاركه الفرح عادل الذي دعانا الى قضاء سهرة في احدى الملاهي الليلية فرحة بهذه البشرى ؟ ! ..

وذهبت أنا ووالدي ..

لاح لي خياله خلف طاولة حجزت لنا .. وتساءلت من يا ترى بجانبه ؟ ؟ .. إنها سيدة في العقد الثالث تقريباً من العمر .. جميلة أنيقة ؟؟ !

وقدّمها لنا :

ـ آمال .. زوجتي ..

وصعقت ..

كأن الجبال قد زلزلت على كتفي .. حييتهم .. وتهاويت على أول مقعد بجانبي ..

زوجته ؟؟ .. هل هو متزوج ؟ .. لمَ لمْ يذكر زوجته أمامي ؟؟ لمَ لمْ أسأل عنه والدي ؟؟ .. وهل كانت شفتاي تستطيعان لفظ أسمه أمام أحد فيلمس حبي واضطرابي ؟ ..

وتذكرت أمي .. انني بحاجة الى مساعدتها وحنانها .. وصدرها الرحب الحاني ..

وبذلت جلّ ما أستطيع من الصبر .. في تمضية وقت كانت تمنيني نفسي منذ قليل بكثير من السعادة فيه .. فإذا به أشقى واتعس زمن مرّ علي .. كانت الأشجار تتراقص أمام عيني كأنها شياطين ساخرة تقهقه في أذني .. كنت أرى الناس حولي أقزاماً بشعة في دنيا غير دنياي .. وموسيقى الجاز تنصب في سمعي بأصوات منكرة .. أصوات غبت معها في دنيا كئيبة قاتمة ..

أغمضت عيني وغمغمت :

لمَ خلقتني يا رب ! لمَ ألقيت بي من عليائك ؟ .. رباه ! مدّ لي يدك الحانية .. فقد ضاق صدري من شكوتي .. من آهاتي .. من أناتي .. خذني إليك .. ارفعني الى سمائك العالية .. لعل في دنياك الرحمة والرأفة ..

لعل فيها موسيقى أعذب ممّا تخيلت .. وبشراً أسمى ممّن بلوتهم .. بحثت عن الحب فرأيت الخداع .. بحثت عن المودة فرأيت القسوة .. بحثت عن الإخلاص فسمعت السخرية تضحك .. حياتي ظلم وجحود .. نسيان وغدر ..

وتيقظ ضميري مع ثورتي .. خفت عذابه ولومه .. ما ذنب زوجته ؟ .. لمَ أطمع في حبه بعد حنانه الذي أسعدني كثيراً ..

عشت لحظاتي تلك في صراع مخيف .. صراع بين حبي وضميري الذي أستيقظ من سباته وأحال وجودي جحيماً لا يطاق ، ورأيت نفسي كالضائع يتخبط في بيداء الحياة التائهة .. لا يدري له مقراً ..

ومرّ الليل .. بطيئاً كعبء ثقيل جثم على صدري ..

ثم عادت بنا السيارة أخيراً .. وغابت في الدروب المظلمة .. حين غابت نفسي في صمتي وشرودي .. ثم قررت أمراً .. يجب أن أهرب من حياتي .. من آلامي .. لم أعد أحتمل ..

والتفت والدي على قولي :

ـ ما رأيك يا والدي في تتمة دراستي الجامعية في أوروبا ؟ .

وشملني حبه وحنانه بكلمات أقرّت رغبتي :

ـ كما تريدين يا نادية ..

لست أدري لمَ سالت دموعي حينذاك ؟ .. أهي دموع الفرح أم الألم ؟ ..

وشغلت بتحضير أمتعتي للسفر .. كان يوم الثلاثاء يحمل لي بين ثناياه دوماً المفاجآت .. إذ سافرت في يوم ثلاثاء مودعة والدي المسكين وفي قلبي غصة من دموعه الحانية ..

وغابت مناظر بلدتي عن عيوني .. بلدتي التي طالما أحببتها .. والتي أمضيت فيها أسعد أيامي وأشقاها ؟! ..

واستقبلت طلائع بلاد جديدة .. بلاد لا أعرف أحداً بها ..

أحمل في أعماقي همساً حنوناً يرافقني أينما سرت .. هو صوت أمي .. وحول خواطري عبير ذكرى .. ذكرى حلوة ماضية ..

* * *

ناقمة

من واقع حياتنا تنبع الآلام ..

ومن قسوة القلوب يرفرف الحرمان ..

نتجرّعه قطرة قطرة .. من قساوة الأب .. من غدر الزوج .. ومن ظلم المجتمع ..

المرأة .. هي الكأس الزجاجي الشفاف ، الذي يجب أن يراعى بعناية !!

فكيف نرمي به بين براثن القسوة والظلم ؟ . وننتظر منه أن يظل صحيحاً .. لامعاً ..

كيف تتماسك مادته ؟ .. وهو يتعرّض لألف ضربة ورمية ..

المرأة .. ذلك المخلوق العاطفي الرقيق ! .. كيف تسعد ان عاشت حياتها في ضياع وحرمان ؟ .

* * *

عرفتها جميلة .. باسمة ..

تأخذ بمجامع القلوب أينما وجدت .. تضفي على من حولها البهجة والمرح .. وتنشر في الأرجاء الرنّة الحلوة ، التي تتبع ضحكة امرأة عابثة .. مستهترة ..

تضحك كثيراً ..

تتكلم كثيراً ..

وتتجمّل كثيراً ..

ومن أعماقها تنعكس آلام دفينة .. وكثيراً ما كانت تحاول اخفاء ما تشعر به .. وما يعتريها من سهوم في بعض الأحيان ..

وأتاحت لي الأيام .. فرصة التعرّف على طباعها .. ولمست آلامها الخفيّة .. في تلك الدقائق التي يعتريها فيها شحوب .. وصمت .. إذ تروح في غفوة عمّن حولها .. ساهمة .. تنبش بين ماضيها .. وقد أصابها ذهول مطبق ..

كنت أراقبها بعين تتلهّف لمعرفة ما وراء استهتارها المصطنع ..

كأنها تنتقم ممّا عانته في الماضي ..

وأمنت جانبي .. ثم جمعتني بها الظروف في يوم .. كنّا به وحيدتين ، في حديقة داري ..

حين بدأ النهار يضيع بين أحضان الظلام الزاحف ..

وأخذ النسيم يداعب خصلات شعرها الأسود .. المتثور على جبينها وكتفيها ..

زفرت زفرة حرّى .. حملها الهواء فرحاً .. وطار بها الى الشجر .. الى الأغصان التي أخذت تتمايل وترافق وجودنا ..

ثم راحت عيناها تتيه في السحيق من ماضيها .. وصمتت ساهمة ، كأنها لوحدها .. لا ترى أحداً ..

ثم جاءها صوتي الحاني :

ـ إن وراء مرحك المصطنع يا « ناهدة » آلاماً مخفيّة .. في أعمق أعماقك ..

فكم تحلو الصداقة ، حين تفتحين فيها قلبك وتقولين .. ما بك ؟ .. وما قاسيت من ظلم ؟ ..

نظرت اليّ بعينين غشيتهما دموع وكآبة خرساء ..

قالت :

ـ نشأت محرومة من كل شيء ..

من العطف .. من الحنان .. ومن الحب ..

نشأت دون أن أتذوّق لفظ كلمة « أمي » ..

كنت اسمع أترابي ينادون « ماما » .. وأنا ؟ .. محرومة تذوّقها ! ..

كنت وحيدة مع أب طلّق أمي .. وتزوج عليها امرأة أخرى .. امرأة ظلمتني .. وأذاقتني حلاوة الطفولة .. مرارة وحنظلاً ..

كانت أيامي معها سوداً حالكات.. يودّعني النهار بضربها المبرح.. ويستقبلني الليل بضرب والدي لما تهمس في أذنه من تهمات ! ..

وكانت غرفتي الملجأ الأمين .. ممّا الاقيه في يومي وليلي .. أهرب الى أحضانها .. وأرتمي على فراشي منتحبة .. متأوهة .. ضائعة في بحر الحياة ، الذي كنت أراه شقاء .. وعذاباً .

كان يخيفني المستقبل المجهول.. إذ أتصوّره شبحاً .. مفزعاً .. ينشر أذياله حولي .. ليطبق على أنفاسي ويخنقني ..

ومرت أيامي بطيئة .. متكاسلة ..

وتخطيت عتبة السادسة عشر .. وأنا كافرة بالحنان .. بالحب الذي افتقدته .. ووجدت بفقدانه طريقي مفروشاً بالأشواك والآلام..

بدأت تلحّ عليّ رغبة جامحة .. في معرفة مكان أمي .. وأين هي ؟ ..

سألت .. وبحثت .. ووجدتها ..

وجدتها قد تزوجت..ودفنت أيامها مع رجل سكير .. شرير.. تجترّ آلامها .. وذكريات غدر أبي لها بين جوانحها ..

التجأت الى أمي أعيش معها .. هاربة من سجن أبي وزوجته ..

معتقدة بأني أصلح حياتي بذهابي الى من افتقدت حنانها ..وحلو الحياة بقربها ..

لن أنسى ما حييت عطفها .. وحبها لي .. وقد اسعدني كثيراً بعدما حرمت منه طوال عمري المعذّب ..

لكن الشقاء حليفي ..

عاد يطل عليّ من وجه عمي « زوج أمي » .. إذ أخذ ينظر اليّ نظرة رجل الى أنثى ..

أنثى بدأت تتفتح للحياة .. كبرعم الزهر ..

وأخذ يحاول لمس جسدي .. في كل مناسبة تتيح له ذلك .. في أفعاله العبث الجريء .. والوقاحة الفاضحة .. لا كما هو العم المحترم ..

وتجاهلت غايته ..

وقد أخذت ترسب في أعماقي رعدة .. وخوف ..

وظننت انني ربّما أكون مخطئة في حكمي على تصرفاته معي .. او ربّما يردعه تجاهلي لحركاته .. وأفعاله المخزية ..

كنت أنزوي في غرفتي كلما رأيته ..

وفاجأني يوماً بدخوله عليّ في هدأة الليل .. وقد استسلمت الى الكرى .. والى الأحلام العذبة التي تداعب الفتيات في سن جميلة .. نضرة .. من العمر ..

لم أدرِ .. إلا ووحش كاسر يهجم عليّ .. وقد لعبت الخمرة في رأسه .. وفاحت رائحتها في غرفتي ..

إذ أخذ يعبث في جسدي ثائراً .. مهتاجاً .. حانقاً ..

ورحت أقاومه بضراوة .. حتى يئست من تمكنّي التملّص من بين يديه المجرمتين ..

صرخت مستغيثة بأمي التي هرعت الى غرفتي .. ورأته ! ..

ثم خرج من غرفتي متوعداً .. مهدداً ..

ومرت أيام .. عشنا فيها .. في صمت ..

أنا في حيرة .. وأمي في ألم .. وهو في صمت ..

* * *

وخطبت ..

وقررت أن أتزوج لأهرب من هذا الجحيم .. وانسى ماعانيت ..

وتزوجت ..

ثم تناسيت أيامي الماضية .. وبدأت صفحة جديدة من الحياة..

كان زوجي رجلاً طيب القلب ، لدرجة التساهل في كل شيء.. حتى في مجالسة رفاقه ..

رفاقه الذين أخذوا ينظرون اليّ كأني امرأة متعة ؟! ..

كم تحملت من مداعباتهم الوقحة .. عندما تلعب الخمرة في رؤوسهم .. ويبدأون في الرقص ..

وتبدأ أصابعهم تعبث في جسدي ..

وفي يوم ..

ثار عليّ زوجي ، لأني صفعت صديقاً له .. لجرأته الوقحة معي .. كانت الخمرة قد ذهبت بتفكيره ليتفهّم .. لمَ فعلت هذا ؟..

وطلّقني ..

إذ عدت الى أمي الذي توفي زوجها .. وتركها وحيدة ..

وأخذت أتعلم مهنة الخياطة ..

وفي خلال سنة ، كنت أستقبل الزبائن .. وأخيط لهم أحسن الثيـاب ..

وصفت الحياة قليلاً .. وابتسمت في وجهي بعد عبوس دام طويلاً ..

ثم تعرفت على « أحمد » ..

كان أخاً لصديقة لي .. وأحببته .. ووجدت فيه كل ما افتقدته في الرجال ..

لقد زيّن حبّه أيامي بالآمال .. التي بدأت تنمو في الخافق الموجع ..

لكن الحب .. كان يغزو قلبي فقط ؟ ..

أما هو ! .. لم أستشف منه ، ما ينبىء بأنه يحبني !! أو يشعر بحبي له !! ..

سوى حنان كان يحوطني به .. وملاطفات في أفعاله .. لا تتعدى المجاملة ..

ومنعتني كرامتي من البوح اليه بحبي .. ووقفت حاجزاً .. منيعاً .. ومتراساً قوياً .. في وجهي ..

ثم أغلقت هذا القلب على ما به ! ..

ومع مرور الأيام .. لم أرَ أيّة بارقة للأمل في حبي .. من جهة أحمد ..

« احمد » .. الذي أحببته من كل قلبي ..

كم وكم تمنيت أن يشعر بي كأنثى ؟! ..

ولمَ لا ؟ ..

الست جميلة ؟ .. وحار الجواب في فمي ..

ثم جاءني البريد بتذكرة تحمل الدعوة لزواج أحمد ..

انزويت في وحدة قاتلة .. أطوي الأيام على قناعة في داخلي بأني .. لن أوفّق في حياتي ..

فكل الأمور تسير بعكس ما أتمناه منذ ما خلقت ..

وخطبت مرة ثانية ..

أجبرت على أن أقبل الزواج .. فالحياة قاسية .. والمجتمع ظالم لا يرحم ..

لسان الناس لا يصمت .. وأقاويلهم لا تنتهي ..

وأصبح نهاري عمل وخياطة .. وليلي سهد وعذاب ..

نهاري تعب .. وليلي شقاق مع زوجي هذا !! ..

إنه يريد كلّ ما أحصل عليه من النقود ..

ويئست مرة أخرى من حظي في الزواج .. يئست من ابتسام الأيام لي ..

وطلبت الطلاق .. وافترقنا ..

وقررت هذه المرة ألا أتزوج .. اذ لن تفلح أقاويل الناس في ردعي ..

* * *

ونقمت على الرجال بأنواعها ..

منهم الظالم .. ومنهم الغادر ..

منهم القاسي .. ومنهم الناسي ..

وقررت .. أنه يجب أن أذلّ أيّ رجل أصادفه ..

يجب أن أنتقم لنفسي ممّا عانيت ..

الست جميلة ؟ .. ولم يحبني أحمد ؟ ..

الست مخلصة لمن طلّقني ؟ ..

الست شريفة لأني لم أقبل مداعبة عمي ؟ .

ثم الست بائسة ؟ .. وقد عذّبني الأب والخالة ..

سأنتقم من كل هؤلاء .. من الرجال كلهم .. دون استثناء ..

الى هنا انتهت « ناهدة » من قصتها ..

وغيبتني الظروف عن حياتها .. فقد كنت مسافرة .. في بلد بعيد .. وعدت أخيراً ..

الى بلدتي .. وموطني الحبيب ..

ولعبت بي الرغبة في أن أسأل عن « ناهدة » .. وعن مصير الرجال بين يديها ..

واتصلت بها هاتفياً .. لأفاجئها بمقدمي ..

إذ أجابتني فرحة :

ـ لقد وجدت يا عزيزتي أخيراً .. من أحبه ويحبني ..

وجاءني صوت بكاء طفل صغير ..

قلت :

ـ مبروك يا « ناهدة » ..

* * *

الا ترون معي أن الرجل قد ظلم « ناهدة » كثيراً ؟..

ظلمها أباً ..

ظلمها عماً ..

ظلمها زوجاً ..

وظلمها حبيباً ..

وإن لم تجد في النهاية من تحبه ويحبها ؟ .. فمـاذا يكون مصيرها ؟ ..

مصيرها امرأة فاشلة حتماً .. تلعب بقلوب الرجال لتنتقم !!..

فتظلم نفسها .. ويظلمها المجتمع ..

ألا ترون أيضاً .. أن الغرابة في وجود الدواء في بيت الداء !؟.

ما أقسى حكمك أيها القدر ! ..

سكونك يا ليل يعزّيني .. وظلمتك تشملني ..

أستمدّ منك شجاعتي وجلدي .. فتنطلق نفسي في أغوارك السحيقة .. محلقة في غياهب المجهول ..

سكون ظلمتك توأم نفسي القاتمة الحزينة ..

نكرة ضائعة في سحرك المغري ! .

سحرك يا ليل .. الذي ينشر ظلاله على النفوس المعذّبة .. فينقلها من ضفة الآلام الى ضفة الآمال .. وهل يستطيع الانسان العيش بدون أمل ؟ ..

في الأمل جمال الوجود .. وسحر الحياة ..

ولكن أملي يا ليل ؟ .. أين أملي ؟ .. أين أيامي الخوالي ؟ .. أين حبي ؟ .. أين سعادتي التي كنت أعيش على أمل في تحقيقها ؟..

أين بلدتي ؟ .. وأين شاطئي الحبيب ؟ ..

أين « سعاد » ابنة خالتي .. ورفيقة صباي ؟ ..

كنت في الخامسة من عمري ..

وابتدأت الخيالات تتركز كصورة في زوايا الذاكرة ..

ورأيت أمّي مسجّاة على فراش الموت .. تشكو علة في صدرها .. الخافق .. التعب ..

أمامها امرأة .. هي « زوجة أبي » الثانية .. ترعاها وتطوي الليالي مع والدي ..

أما أنا .. فاني أمكث في غرفة والدتي المريضة .. أستمع وجلاً .. رغم صغري .. الى أنفاسها المتهدجة ..

ويمر ليل .. ويأتي ليل ..

وأنا في انتظار شفائها .. ورؤيتها كالمرأة الأخرى .. تتنقل ضاحكة في زوايا بيتنا القديم .. لكن الآمال والأمنيات كانت ضئيلة!.. كصغر عمري وقتذاك ..

وعدت في يوم ..

ووجدت غرفتي خاوية .. ترفرف فيها أجنحة الغربان .. وتنعق في سكونها أصوات منكرة .. عندها شعرت بأني فقدت كل آمالي وأماني بفقدان شخص عزيز رحل ..

ولملمت شتات نفسي في تلك الغرفة الموحشة .. على زاد تلك الدقائق .. والساعات التي كنت أشتشف منها أنفاس أمي ووجودها بجانبي ..

ورانت الوحشة والكآبة على روحي مع مرور الأيام .. والسنين ..

لقد عوضتني تلك المرأة « زوجة أبي » قليلاً من الحنان .. لكنني .. كنت أحس أن بيني وبينها من الجفاء .. ما بيني وبين الأفق من مسافات ..

ومرت أيام الطفولة .. بطيئة .. قاتمة ..

وأخذ جسمي وإدراكي ينموان مع الأيام .. ثم قررت أن أصحو من كبوتي التي رسمت ظلالاً قاتمة على نفسي .. وابتدأت أجدّ في دراستي .. لأبني مستقبلي معتمداً على نفسي .. ولأكفيهم شرّ إعالتي ..

بدأت أتردد على بيت خالتي .. أتنسم عندها ذكرى أمي الراحلة .. وكانت « سعاد » ابنتها في مثل سني .. بذلك أسبلت على أيامي الماضية ستار النسيان .. حين أخذت أتردد على « سعاد » لنتشارك الدراسة معاً ..

وانجابت وحدتي الماضية وحيرتي الحاضرة حين ابتدأت عواطفنا في النمو ..

كنا لا نفترق إلا في المساء .. اذ كان الفراق ساعة النوم حلواً .. لأنه كان يضاعف الشغف في صباح اليوم الثاني ..

ولمست حبي في عيني سعاد .. ولمست حبها في عيني ..

وقد تفتحت آمالي وأحلامي .. وتذوقت بهجة الأيام وجمالها .. إذ غمرني لطفها ، وأحسست في وداعتها ما عوضني عن طفولتي القاحلة القاسية .. وذاب أمام حبها خيال أيام عاشت كثيراً في اعماقي وأشقتني .. حين كانت عيوننا تتعانق في نظرات من الحب الواله الصامت ..

وكان يوم ..

طلبت مني بصوت مرتجف أن نتلاقى على الشاطىء .. عندما يغفو أهلنا .. وكان الشاطىء قريباً من بيتنا وأمضيت سحابة يومي، في انتظار ما تفاجئني به شفتاها من عذب الكلام ..

وذهبت في الموعد ليلاً .. لمحتها عن بُعد .. يتوسد جسدها الرمال .. وهي غارقة في بحار من الأفكار !

تحركت من مكانها على وقع خطواتي وهي تقترب . ثم نادتني هاتفة :

ـ هل جئت أخيراً يا « هاني » ؟

جلست بجانبها .. وقد منحني هدوء الليل وسكونه .. وقفر المكان ، جرأة وشجاعة استنكفت عنها سنتين ..

أخذت بيديها بين يدي .. وهتفت :

ـ سعاد !

واستسلمت لندائي .. إذ ارتمت على صدري منتحبة ، متأوهة ..

زحفت يدي الى وجهها تلامسه .. وتمسح دموعاً جرت على وجنتيها .. النضرتين ..

– لمَ تبكين يا سعاد ؟ .. سعاد حبيبتي .. أنت لي وأنا لك ، فما يبكيك ؟ ..

أجابتني والألم يعتصر قلبها الغض :

– يريدون أن أتزوج يا هاني !! ..

غامت عيناي في ظلمة عارمة ، مع ظلام الليل .. وأذهلتني المفاجأة !!

يزوّجونها ! ...

لم أكن أتوقع أن ليلنا الحالم هذا .. سيكون ليل عذاب وسعير يحرق أضلعي ..

وتسللت من بين يديها المتشبثتين بي الى قرب الماء .. ثم رحت في دوامة من الأفكار مع هدير الموج وعتمة الكون .

صافح صوتها أذني :

– هاني .. عد إليّ .. عدّ اليّ اني هنا .. هاني بربك اسمعني ..

وجررت جسمي متهاوياً .. وعدت اليها صامتاً ، أنفث الأنفاس من صدري بزفرات كانت تصافح عينيها الباكيتين .. وصوتها المتهدج ..

قالت :

– لا تزد آلامي بآلامك .. لنفكر معاً ، لنفكر في نفسينا ، وحبنا .. ساعدني يا هاني ! فلن أتخلى عنك ، وعن حبنا وسعادتنا .. لن أكون لسواك ولو أطبقت علي الأرض . إلا اذا أردت أنت ؟ ! ..

أجابها الحزن في ضعف صوتي :

ـ ما حيلتي يا سعاد .. ما حيلتي وأنا ابن السادسة عشر ، وليس لي أم ترحمني .. هل يساعدني والدي الذي أذاق أمي مرّ العذاب ، وتزوج عليها امرأة أخرى ، ثم خلفها للأمراض .. ورماها الى الموت البطيء القاسي ؟ .

ما هو دخلي ؟ .. ما هو مصيري ؟ .. لأرفع صوتي عالياً ، وأقول :

ـ سعاد لي وليست لأحد ..

فكري معي ياسعاد ! . فكري بعقلك لا بقلبك ، سيبقى حبنا ذكرى .. ذكرى حلوة ناعمة نتزوّد منها للأيام الآتية .. تزوجي يا سعاد .. واطوِ حبي في زاوية من قلبك .. كما سأطوي ضلوعي، وقلبي على حبك وذكراك .

* * *

أعقب تصريحي هذا فترة صمت ثقيلة .. مروعة ..

حتى تراءت لي كجدار عال يصعب تسلقه .. ونهضت واقفاً ، وانتشلت يدها المتهاوية على حضنها :

ـ هلمي بنا ياسعاد .. فقد انتصف الليل ، ويحسن بنـا أن نعود ..

أسلمتني يدها .. إذ قامت متهالكة يا ئسة ..

وسرنا .. وخلفنا خطوات على الرمال ، ما لبثت الرياح أن اضاعتها في معالم النسيان .. كما ستنسى حبنا الأيام .. وودعتها وأنا أكبت ألم الفراق ..

لفتني الدروب وفي أذني رنين صوتها .. وفي جنبي رعشات أليمة ، أطويها وأطوي سعادتي بين صفحات الأيام المجهولة .

دخلت غرفتي بائساً ، شقياً .. إذ التقطت أذناي همهمة انفاس تتردد ! ..

وعادت بي الذاكرة الى طفولة مرت بي ، قرب والدتي التي كانت روحها تشاركني ألمي ، والتي أسمع حنان صوتها في همسات مع ذبذبة الريح ..

لم مزّقت الأقدار حبي ؟ وصفعتني بهذا الحرمان الذي سيخلفني للضياع ، في بحار الآلام والعذاب مرة أخرى ..

أأعود لوحدتي ووحشتي ؟ ..

أأعود بعدما تذوقت صفو الأيام ، وعشت مع جمال الحياة وحبورها ؟ ..

هل أنادي سعاد ، وأسير الى بيتها .. وأنا واهم بلقياها ؟ .. ثم أعود بخفي حنين ..

عشت أياماً طويلة في ظلمة داكنة .. وسمعي يلتقط كلامهم عن قرب زواج سعاد .. ثم تحديد يوم « العرس » .. وجاء ذلك اليوم الفاصل بين حياتي وحياتها .. وقد أحاط بي سكون وشرود..

تطاولت خيوط الشمس الراحلة .. ثم رسمت أفقاً وردي اللون ، حين التجأت الى شاطئي الحبيب ..

وزحف الليل يهزم تلك الخيوط وينشر سواده بدلاً منها .. ولفتني ظلمته مع صوت الزغاريد التي أخذت تدوي في أذني ..

تمددت على الرمال .. انبش بأصابعي سعادة ضاعت هنا على الرمـــال ..

إذ كانت يداي تقبضان على حفنات الرمال الناعمة .. فتتسلل هاربة من بين أصابعي .. وتستقر على الرمال ثانية ..

لا أدري ما مرّ من الوقت حينذاك ! .. كل ما أدريه أني شعرت بلسعة من الهواء البارد ، تصافح جسدي المسجّى .. والفجر يبدأ في البزوغ ، ويبدأ في تسجيل أيام شقائي ووحدتي ..

ووجدت نفسي في مكاني ، كما ودعت الشمس واستقبلت الليل ..

نهضت ، وسرت بخطوات ضعيفة ، أجرّ قدميّ جراً الى مصير مجهول .. لاحت لعيني مناظر البيوت مع بيتنا الموحش في الواجهة .. ووجدت نفسي قد عدت الى جحيم أحبس فيه ..

ودخلته مطروداً من دنيا سعادتي وهنائي .. ثم انزويت في غرفتي خوفاً من عيون تتساءل ما بي ؟ ولمَ هذا الشحوب المروع ؟..

كيف أستطيع أن أصف أياماً مرت عليّ كدهور طويلة من الهموم والآلام .. وكنت كلما ضعفت مقاومتي لهذا القلب ، أسـير الى شاطئي حيث أمكث هناك ساعات .. وساعات ، في مكان سمعت فيه صوتها ينادي ويهتف من الأعماق : لن أتخلى عن حبنا .. لن أهدم سعادتنا ..

وأهدىء قلبي باللوم عليّ .. إنه ذنبي ! .. انه عقلي ! الـذي تكلم وأقنعها بالزواج ..

وكنت أنهي جولتي هذه بزفرة حرّى تتساءل :

ـ هل أنساها يوماً ..

* * *

ومرت الأيام ..

ووجدت نفسي شاباً يافعاً .. رفيع العود .. قد خلفته الأحزان شبحاً يسير .. وجاء يوم قرّر فيه والدي مصيري .. إذ أصبحت مهندساً ناجحاً في أعمالي ، بائساً في قلبي ..

وكان مقر عملي في بلدة غير بلدتنا .. أقمت فيها بعيداً عن والدي وزوجه ، وعن منبت آمالي وآلامي .

ولقد زادني البعد شغفاً بالتساؤل عن أخبار سعاد ! هل نسيتني ؟ .. هل أسعدها زوجها ؟ ..

زوجها الذي لم تلمحه عيناي .. ولم أقصد التعرّف عليه ، ورؤيته معها !! .. كما لم تلمحها عيناي منذ فراقنا على الشاطىء .

واشتد بي الحنين بعدما أصبحت رجلاً يشار له بالبنان .. ودفعني شيء مجهول الى السفر .. الى بلدتي الحبيبة ، وسارت خطواتي متجهة الى بيت خالتي ..

طرقت الباب ، وأجابني صوتها واهياً ! .

صوت قد خلفته الأيام وسطرته برنة هدوء حزين ..

وكان عناق ! وكان بكاء ! .. حتى هدأ أوار الشوق بيننا ..

وسألتها بكلمات متعثرة على شفتي :

ـ كيـ...ف .. سـ..عا .. د ؟ ..

أجابتني بدموع تجمعت في المآقي :

ـ أما سمعت أخبار سعاد ؟ .. انها في المستشفى يا هاني .. تعاني آلاماً فظيعة من مرض الـ...سل ! ..

دارت الدنيا بي .. كأني قذفت من علو شاهق !..

سعاد في المستشفى ؟.. سعاد مريضة ؟ .. حبيبتي ، ورفيقة صباي ؟ . وفي مرض السل ؟ ! ..

كيف مرت أيامي وانا أتجاهل السؤال عنها .. كلما هاجني الشوق ؟ ..

حقاً ! إنني لغادر ! ! ..

لكن عذري أن أدعها تهنأ في زواجها ، وتنساني ..

ثم افترقنا بعد أن تواعدنا على الذهاب الى المستشفى ..

وذهبت اليها وأنا واجف القلب محطمه .. ودخلت غرفتها ورأيتها ..

رأيتها كالشبح الضائع مسجّاة على السرير .. وأدارت عينين قد أضناهما المرض .. وصعقت !

أنا أمامها ؟ .. بعد مضي تلك السنين الطويلة .. وهي امامي مريضة شاحبة ! ..

لم يسعفني تجلدي .. اذ ارتميت على يديها أقبلهما ، وأغسلهما بدموعي الغزيرة ، وأنا أعتذر اليها عن غيابي الذي طال .

كانت تجيبني بأنفاس متعبة .. ودموع سالت على خدين نحيلين .. قد أحالهما المرض الى صفرة واهية .. وشاركتنا خالتي بكاءنا ونشيجنا .. ثم ربتت على كتفي :

– لم أكن أعلم يا هاني أنكما متحابّان ! حتى اعترفت لي سعاد على سريرها هذا .. بما كان بينكما .. وبأنها تتمنى أن تراك ولو مرة واحدة قبل موتها .

وغالبت ألماً فظيعاً حاق بي .. وأنا أعيش مع سعاد لحظات قاسية من الألم والشوق .

وحرت بما سأفعله بعد رؤيتها مريضة .. ومع عذاب ضميري الذي أتهمني بأنني السبب في كل ما حصل لها .. قررت المكوث بجانبها .. وأن لا أتركها تذوي وتموت ..

قضيت أياماً بجانبها .. وتعرفت على ذلك الزوج الذي سلبها مني منذ سنوات ..

وتجاهلته .. وقد تساءل كثيراً عن اهتمامي هذا ؟ .. بعد مرور سنين ولم يسمع بي ..

وتجاهلت تساؤله أيضاً .. لاتزود من رؤيتها بعدما فرضت عليها الزواج من غيري ..

ويبدو أن القدر قد أشفق علينا ثانية .. إذ وهبها من الحياة بضعة أيام .. كانت فيها فرحة .. منتعشة .. يداعبها أمل الشفاء برؤيتي بعد طول غياب ..

وجاء يوم ..

ذهبت اليها .. فلم أجدها .. ووجدت سريرها فارغاً .. على الوسادة مكان رأسها الذي أحنى عليها طويلاً .. وعلى المشجب ثوبها الذي كانت ترتديه ، وتعانقني طياته .. ويصافح صدري وملابسي ..

تحسست أصابعي ذلك الثوب كثيراً ، وأنا أتساءل عن سرّ القسوة والحرمان في الحياة ..

ثم ارتميت على سريرها .. أغمر وجهي وجسدي بين ثناياه .. أنشب أصابعي في قماشه ..

علّني أحصل على شيء منها ! .. فكنت كما ضممت الرمال يوماً وانفلتت سعادتي وحبي من بين أصابعي ..

سعاد ! ..

سعاد الجميلة .. الناعمة قد ذهبت الى ما وراء الأفق .. لم يبق لدي من آثارها الا غصات أليمة تعتصر قلبي ..

ففي موت سعاد .. اضمحلال ابتساماتي ..

وفي موت سعاد .. انزواء أفراحي ..

روحي معك يا سعاد .. روحي ترفرف كل ليلة مع الأسى قرب قبرك ..

ترفرف وهي تنوح على نغمة كانت شجية ثم أصبحت شيئاً صامتاً في باطن الأرض .

ودعت طفولتي برحيل أمي .. وودعت صباي بزواج سعاد .. وها أنا أودع عامي الثلاثين بموت سعاد ..

أواه ! من الذكرى .. ومن حياتي التي سُلخت أيامها في الشقاء والحرمان ..

وأنا أعيش على ذكرى سعاد .. أنا الغادر القاسي ..

* * *

وتمر حياتي على حنين الى سعاد .. فأطفئه بسفري اليهـا
ومعانقة قبرها .. وإرواء ترابه بدموعي .
عسى هذه الدموع تنبت زهرة ..
فتكون كقطرة الندى التي يسكبها الفجر بين أوراق الوردة ..
هذه الزهرة هي روحي يا سعاد ..
إنها ترفرف دوماً حولك .. وعند قبرك ..

* * *

انتظار

دقت الساعة معلنة انتصاف الليل ..

سرت دقاتها عبر الحديقة .. وأنا في مكاني على الشرفة ..

واجمة .. شاردة في الفضاء .. في المجهول .. في دقائق الأثير ..

في غياهب الظلام .. في الأعماق السحيقة .. في كنه الوجود ..

سكون يشملني ..

على شفتيّ صمت .. وفي حشاي صخب ..

بين شفتي لحن أغنية لم يتم ! .. وفي الخافق آلام لا تحتمل !..

أحببته والقلب غض صغير .. في الحنايا رعشات هائنة ..

رعشات من الأمل .. من الخوف .

إني أذكر تماماً كيف كنا صغيرين في بيت واحد .. نلتف مع أهلنا حول المذياع .. ونستمع الى الأخبار من هنا .. وهناك ..

كنت أشعر رغم صغري بذلك الخوف الذي كان يعتريني من التقاط أذنيّ مع نمو إدراكي الصغير .. أخبار الحرب ..

أخبار اجتياح جيوش هتلر للمدن والبلاد ..

كنت أرتعش وألتصق به .. وأتلمّس من يديه موئلاً يعينني ..

وابتدأت هزيمة العاتي .. ما أشد وقع الفرحة علينا يومذاك ..

فرحنا لهزيمة القوي الظالم .. لهزيمة من شرّد وعذب آلافاً من البشر ..

من أذاقهم حمم النار ..

وانتهت الحرب ..

وعادت أيامنا صافية هنيئة ..

ولكن ! أيّ صفاء كنت أتوهمه ؟ رغم صغري .. والمستعمر في بلادنا ، يعيث فيها فساداً وظلماً .. وتقتيلاً ..

هل يستطيع ذلك الرأس الصغير حفظ كل ما آلمه من المستعمر؟. كيف عذّب هذا ؟ واعتدى على تلك ؟ .. كيف كان يبعثر جيشه المختلط بين المدن والشوارع ..

وتنفرد تلك الفئات المخيفة منه تتلمس الدناءة والشهوة أمام كل باب منادية :

ـ فاطمة .. هنا فاطمة ؟ ..

كأن كلمة فاطمة .. هي عندهم كل شيء يحصلون عليه ..

وما علموا أن كل اسم عربي .. مقدس لدينا ، ندفع له الدم الغالي من أبنائنا وبناتنا ..

إني أذكر تماماً كيف كنت يوماً ..

كنت أرتجف خوفاً بجانب والدتي ، وهي تطل من النافذة ، تنتظر عودة أبي .. وتقرأ له الآيات القرآنية .. والأدعية .. لينجو من شرذمة من الجند ، تبعثرت في حينا سكارى .. يتحرشون بكل غادٍ ورائح .

كان لساني الصغير ينطلق داعياً .. خوفاً على والدي بكلمة :

ـ يا رب ! ..

والتفت الى أمي أسألها من هؤلاء ؟..

قالت :

ـ استراليون ..

وارتعدت..لأن كلمة « استرالي » كانت مبعث خوفنا الشديد..

سمعت لهاث أمي وخوفها متجمعاً .. حين قالت :

ـ هذا هو .. احمه يا رب ..

جاء والدي وقد دخل السكارى منعطفاً يطرقون باباً وينادون :

فاطمة ! ..

ووجمنا ننتظر صرير الباب .. ودخل والدي وتنفست أمي الصعداء ..

أخذت بيدي ووضعتني في سريري وقالت :

ـ نامي يا سهام .. لأرى والدك ..

ثم استسلمت لسنة الكرى والأحلام المخيفة .. المزعجة ..

* * *

ومرت الأيام ..

وسارت حياتي مع ابن عمي ، في نفس البيت .. ثم انتهت دراستنا ونلنا « البكالوريا »

إذ التحق بالكلية العسكرية .. غاب عنا خلالها سنتين ..

كنا نتراسل في فترات متقطعة .. حتى جاءنا يوم تخرجه ، وقد ارتدى بذّته العسكرية .

وكان لقاء بعد فراق ..

وكان شوق يتجدّد ، ويعود يدرج في الحنايا والقلب ..

ونسينا طفولتنا ..

نسيناها في استقلال العرب وانطلاقهم في آفاق جديدة .. وانبثقت القومية العربية .. وتفهمها كل صغير وكبير ..

لقد صفت لنا الأيام وعادت الابتسامة تشرق على وجوهنا السمر .

ونحن شابان يافعان .. انا في الجامعة .. وهو في الجيش .. يفصلنا النهار ويجمعنا الليل ..

كان في سهراتنا يتلمس كمانه ويعزف لي .. أشواقه وحبه على الأوتار الرفيعة الناعمة .

كانت مقاطع اللحن همس نجوانا .

وعلى سلم الموسيقى ارتقى حبنا ..

ارتقى وصعد الى ذروة الهناءة ..

بين تلك الأنغام السماوية .. التي تحمل المرء ليحلّق في موجات الأثير نما حبنا وترعرع .

نما منذ الصغر ..

وعلى شفاهنا ندى البراءة والطفولة .

كان يعزف لي وأغني له ..

يعزف ويعزف .. حتى أشعر بخيالي ملاكاً يطوف جنات النعيم ..

وتتفتح شفتاي لتعبر عن مشاعر نمت في قلب خافق له ..

سار حبنا في دروب مفروشة بالورود والرياحين ..

غردت فيها الأطيار .. وزينتها الأزهار . وأسكرها عبق النرجس والبنفسج .

ولم ندر آنذاك ما خبأه لنا القدر ؟ ..

إذ التقطت آذاننا أخباراً انتشرت في البلاد ..

نبأ العدوان الثلاثي على مصر ..

على بلد عربي ..

على بلدنا ..

وتطلعت الى ابن عمي .. يملؤني خوف وتساؤل .. وانسللت الى غرفتي ، وفتحت الشرفة .. ورأيت القمر يطل عليّ .. يسكب في أعماقي حنانه المسكر .. ورفعت عينين قد ملأتهما الدموع .. وهمست :

ـ رباه ! من أعمق أعماقي الحزينة أصرخ إليك ..

من أغوار ظلمة الليل استعين بحنانك .. فاسمعني ..
وأجابتني الأعماق بدقات خفيفة على باب غرفتي ..
فتحت الباب ورأيته ..
قال :
ـ أنا على السطح انتظرك .
أسرعت الى شالي أحتمي به من برودة الجو .. ولحقت بـه مسترقة الخطى ..
ووصلت ..
وصلت الى شاطىء الأمان .. الى ذراعيه ..
وضمّني بقوة .. وحنا خده على خدي بلمسات ناعمة .....
ثم أخبرني عن وجوب سفره الى الحدود السورية .
وجمدت أوصالي .. وسرى الصقيع الى أعماقي ..
نظرت اليه بعينين دامعتين .. يملؤني خوف من بُعده .. من فقده .. من فراقه ..
وكانت همسات ..
وكانت عهود ..
وكانت وعود ..
ثم قال :
ـ انتظريني يا سهام ! ..
انتظريني .. فسآتيك مكللاً بالنصر والنجاح .. ونعلن خطبتنا ..
وسحب خاتماً في أصبعه .. وألبسه لأصبعي .. مؤكداً حبه ، ووعوده ..

ووعدني بأن يناجيني .. ويذكرني في الساعة العاشرة من كل مساء ..

ثم قال :

ـ إن رأيت القمر .. فهو رسول حبي ..

وان كنت نائماً .. سأطوف معك الأحلام ..

وان كنت بين الحمم والنار .. سأذكرك وأستمد من حبنا معيناً يشجعني على المضي في النصر .

ثم افترقنا ! ..

افترقنا على ألم وعهد .

ودخلت غرفتي ناقمة .. على البشرية .. على الوجود .. على الحرب .. على المستعمر ..

ذلك الكلب البغيض الذي لا يخرس فمه .. بل يظل منذ طفولتي يعوي ..

حتى الآن تحرك ليأخذ مني حبيبي ..

لمَ لا يعيش البشر في أمان ؟ .. في سلام ؟ ..

لمَ هذا الحقد البغيض ؟ ..

لمَ خلقت هذه النفوس الدنيئة ؟ ..

أيقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟ ..

لمَ لا يتركوننا نعيش كما نريد ؟ في أرضنا .. في بلادنا ..

أطماعهم لا تنتهي ! وجشعهم في ثرواتنا وخيراتنا نحن العرب لا ينضب !

سننتصر ..

سننتصر عليهم ! ولن ندعهم يمرّون في شوارعنا ، وأحيائنا يعيثون فيها فساداً .. كما عاثوا في الماضي ..

سيمرون وأجسادنا كتلاً حمراء تحرقهم ، وتحرق جيوشهم ، وتبيدها عن آخرها ..

* * *

وسافر ابن عمي ..

وعشت أياماً حالكة .. أنتظر أخبار مصر .. وأخبار حبيبي ..

مع ذلك كنت فرحة ..

فرحة لاستبسال العرب وصمودهم أمام ثلاث دول !

دولة مزعومة .. دولة العصابات .. ودولتان كبيرتان ! ..

وصمدت مصر ..

وصمد العرب ..

عشنا أياماً مضطربة على أعصابنا ..

على إيماننا العميق بقوميتنا وانتصارنا ..

وعشت على انتظار ابن عمي .. وأخباره التي انقطعت ..

كنت أعيش معه كل ليلة .. في الساعة العاشرة ..

في مكاني شاردة .. واجمة في الأثير .. في الفضاء .. في ذلك المكان على الحدود .. عند حبيبي أتلمس خاتمه ، وأستمد منه شجاعة وصبراً ..

ورفرفت الفرحة في أنحاء جوانحي بانتهاء الحرب ..

انتهت الحرب .. وصمد العرب .. وانسحب المعتدون ..

وأخذت أنتظر عودة ابن عمي على أحرّ من الجمر ..

وفي يوم ..

عدت من الجامعة وأنا أشعر بقلق شامل لا أدري له سبباً ! ..

دخلت البيت .. ورأيت الوجوم يسود الوجوه ! .. وبينهم ضابط في يديه رزمة أوراق زرقاء ! ..

فانعقد لساني .. ونظرت اليهم متسائلة ..

حينها جاءني الردّ في نشيج خافت من أمي ..

وعلا صوتي :

ـ ماذا جرى ؟ .. أين ابن عمي ؟ ..

امتدت يد ذلك الرجل الغريب تناولني الأوراق التي كانت معه .

وقال :

ـ تشجّعي يا آنسة سهام.. انني أعرفك كما عرفك ابن عمك..

ودارت الدنيا بي ..

ثم أعقب :

ـ كان صديقي .. وكان يتكلم عنك طيلة الوقت .. ويبثك أشواقه وحبه في تلك الوريقات ..

كنت أبقى معه ساهراً في أسرتنا حتى الساعة العاشرة إذ كان يقول :

ـ انني الآن معها .. مع روحها وقلبها .. أحبها .. أحبها ..

ثم أضاف الصديق :

وفي ليلة .. في الساعة العاشرة ..

فاجأتنا دورية يهودية بنيرانهم الغاشمة .. وذهب مع ثلة من الجنود يستطلع ..

ثم لم يعد ..

لم يعد يا آنسة .. وبقيت أوراقه تحت وسادته .. تنظر اليّ ، وتطلب مني أن آتيك بها .. لعل فيها شيئاً من العزاء لك ..

وغادرني ذلك الصديق .. وأنا ممدة أعانق الأرض .. جامدة ليس بي حياة مع وريقات فيها حب وذكرى ..

ومرت سنتان ..

وانا أعيش في غرفتي ساهمة .. شاردة ..

القاه مع الليل في الساعة العاشرة ..

أنتظر دوماً عودته في شرفتي .. أنتظر صوت أصابعه تدق بابي .. وتناديني :

ـ أنا على السطح أنتظرك .

* * *

في سواد عينيه شيء لم تستطع مقاومته ! . .

فيهما كل ما حرمت منه طوال تلك السنين المعدودة من عمرها . .!

فيهما وحدتها وضياعها . .

فيهما حب وحنان افتقدتهما كثيراً . .

كيف تهدىء تلك النبضات السريعة التي استيقظت مع نظراته؟ . .

نظراته الحلوة .. المعبرّة .

كانت لا تعرف عنه سوى شكله .. ويقولون عنه انه شاب متهور ، قد منحته الأيام ثقة بجماله ، وسمرته الجذابة ، وطوله الفارغ .

وانسابت رجاء بين ذراعي زوجها مع أنغام التانجو الحالمة .. ولاحقها بسوداوين جميلتين ..

وتجاهلتـــه ..

لكنها أحست براحة عميقة تشمل أغوارها الغافية ..

لقد لمست الاهتمام بها كأنثى من إنسان ما ! .. لا كما هي .. زوجة .. كقطعة من قطع الأثاث المفروض فيه أن يوضع في البيت ..

أو كشيء يزّج به في حياة الرجل ..

لكنها كانت قانعة بهذا الحرمان حتى رأت عينيه .. مصوبتين اليهـــا ..

أتراه ظنها تراقص والدها للعشرين سنة التي تفرق عمريهما ؟ ..

أم هو من النوع العابث الجريء الذي يتخطى الحدود غير عابىء بما ينتظره ؟ ..

ومرّ ليلها مع تلك الثورة المصطرعة في أعماقها .. وعادت .. عادت انسانة ثانية .. حائرة .. تتساءل وتفكر ..

– لمَ يهتم بي ؟ ..

رأته يوماً في طريقها .. فاعترضها محيياً بجراة ..

وتجاهلته أيضاً ..

ثم سارت مع الشمس الغاربة التي وشحت الأفق بلون الوداع ..

وغابت رجاء في ثنايا الدروب .. وسمعت وقع قدمين وراءها .. فحثّت الخطى .. وحثّها مثلها .. وحاذاها .

ثم ألقى عليها تحية المساء ..

وتصاممت عن تحيته ..

فأصرّ الاّ يدعها اذا لم تبادله التحية ..

ردّتها بصوت يشمله فروغ الصبر .. لتتخلّص منه ! ..

ولم تمهلها الأيام حتى جمعتها به صدفة ..

كانت تصعد الـ « أوتوبيس » .. وفي يديها أضمومة أزهار ..

فإذا به قد جلس بجانبها .. وهو يلح في حمل الأزهار عنها .. لانه يخاف على يديها من الأشواك !! ..

وابتسمت ! هل في الكون من يخاف على يديها من الأشواك ؟

وهي التي اعتادت تحملها .. في وحدتها وحرمانها .. وقسوة زوجهـا ..

كان بارعاً في إقناعها بحبه .. وإعجابه .. وما ذنبه ان كانت متزوجة !

لقد أحبها لأنه أحبها فقط ! ..

وافهمته رجاء أنها متزوجة .. إذ لا مجال للعبث معها ..

كانت كلماتها تذوب أمام رقته .. واهتمامه بها ..

لم تدر بأية قوة سحرية استطاع أن ينتزع منها أرقام هاتفها .. انتزاعاً ..

ثم غادرها بعد أن حدد الساعة العاشرة للقائهما كل يوم بـين الأسلاك .

عادت رجاء الى بيتها خائفة .. من المجهول ! .. من الأيام ! .. من نفسها ! .. ومن الحب ! ..

إذ عاودها خيال فتاة في ثوب العرس الأبيض .. ويدها في يد رجل يكبرها بعشرين سنة ..

كان طبيباً ناجحاً .. واسع الثراء ..

كانت لا تدري إلا أنها سارت في الدرب الذي كتب لكل فتاة أن تسير فيه ..

وولجت باب الزوجية المفروض ..

ومرت الأيام وهي تقنع نفسها بأنها سعيدة ..

لكنها كانت في حرمان ووحشة ! ..

زوجها يحبها .. لكنه حب حسب طريقته الجافة ! ..

ثم جاءتها « ريمة » ابنتها الحلوة . التي عوّضتها عمّا قاسته من ليالي الوحدة القاتلة . حيث تقضي لياليها في انتظار زوجها المشغول دائماً في مرضاه ومستشفاه ! ..

وهي ؟ ! ..

أليست أنثى لها عاطفة يجب أن تشبعها ؟ ..

أن تتزوّد من قلبها ؟ .. وأين قلبها ؟ ..

إنها لم تحس به يوماً يرتعش بين يدي زوجها !..

وهل حصلت على يديه تضمّانها ؟ ..

انها زوجة .. كشيء مفروغ منه أن يضاف الى البيت ليكون كاملاً ..

مزق رنين الهاتف صمتها في الساعة العاشرة ..

واشتد معه وجيب قلبها ..

إنه هو ! ..

وصوته جاءها حانياً .. عطوفاً .. يسكب في اذنيها نهاية حرمان ..

ـ انا وحيد يا رجاء .. صباح الخير ..

اشتدت ضربات قلبها .. رجاء ؟ .. كيف عرف اسمها ..

وتكلما .. تكلما كثيراً ..

كانت إجاباتها تصاحب رعشات أخذت تغزو جوانحها ، وتحيلها الى أنثى تتفتح للحياة بعد كبت دام طويلاً .. وطويلاً ..

لم تدر رجاء ما مرّ عليها من الزمن وهو يكلمها ..

كل ما تدريه أنها باتت أسيرة الساعة العاشرة ..

إذ تمنّت أن يقف سير الزمان .. ويقف معه عقرب الساعة .. وتبقى أيامها .. ساعاتها .. في العاشرة فقط ..

لتسمع صوته .. تترنم بحبه .. بحنانه الذي شملها بعد أن كانت غافية ..

وهو يبثها الشوق ويمنيها بالأحلام الدافئة ..

وتكررت لقاءاتهما عبر الأسلاك ..

وفي تمام الساعة العاشرة .. من كل يوم ..

كم وكم حمل لها رنين الهاتف بعض المقاطع من أغنيات كانت تذكره معها .. فكأنهما كانا على اتفاق في كل شيء .. ويردد تلك

المقاطع في أذنيها بصورة عفوية شاعرية مع من يغني بصوته الحالم الحنـــون ..

ثم جاءها يوم ضعفت فيه مقاومتها لما يسمونه « العقل » .. واتصلت به ! ..

وكان اتصالهما في الليل ..

في تلك الأمسيات التي اعتادت أن تمضيها وحيدة ..

إذ حنّت اليه مع انسياب ضوء القمر عبر نافذتها .. ومـــع روعة سكون الليل ..

عانقت يدها سماعة الهاتف .. حين شاء القدر أن يجيبها هو ..

ـ رجاء ؟! ما بك ؟ كيف حنوت ؟ .. كم تمنيت أن أسمع صوتك مع همس الظلام ..

ـ انني وحيدة يا وحيد .. والدقائق تمرّ عليّ بطيئـــة .. كئيبة .. انني أكاد أختنق .. فما الذي فعلته بي ؟ قل لي بربك مـــا فعلت بي ؟ لمَ لمْ تدعني لحيـــاتي ؟ .. لمَ أيقظتني ؟ .. لمَ عذبتني ؟ .. وكان الصوت الآخر ينساب في سمعها مسكراً .. عذباً .. يتجاوب مع حنينها واضطرابها .. تتفكك لسماعه أوصالها .. ويحن له كيانها ..

وأتى اليها ..

أتى الى بيتها .. يزيّن وحدتها .. وينهي حرمانها ..

أتى ليضمها الى صدره .. ويدس وجهه بين ثنايا شعرها .. وقد غابت بين يديه عن الوجود .

وعاد بعدما مرت عليهما معاً ساعات هانئة ..

ارتمت رجاء على فراشها تبكي ..

ما أسعدها ! وما أشقاها ! ..

لو كانت له .. وليست لسواه .. أما الآن فإلى أين تسير ؟ وفي أية هاوية تتردى ؟ ..

وبرزت أمامها صورة ابنتها ..

فهل تسعد يا ترى وتحب وتتزوج ؟ .. أم تتزوج وتحب كأمها ؟

ستعلّمها ألا تكون طيّعة صاغرة لرغبة أحد ..

ستعلمها أن من حقها ألا تتزوج الا من تحس أنها لا شيء بدونه .. ولا حياة لها الا معه ..

ومرت بها الشهور ..

مرت في حب وانتظار .. بدون أمل ..

كأنها مسلوبة الارادة والتفكير .. لترى الحقيقة ، وتناقش نفسها الى أين تسير ؟ ..

وعادت يوماً مع زهرة زنبق قدّمها اليها .. وكانا معاً في مكان قصي ..

كان في عينيه حب وهو يتأملها .. وفي عينيها عبادة وهي تحاول أن تختزن سعادتها من تلك الدقائق التي تجمعهما ..

ولمست الخوف في عينيه .. خوف عليها لأنه لمس اندفاعها وصدق حبها .. وإخلاصها .

خوف عليها لأنه أحسّ في عينيها اتقاداً ينبذ كل التقاليد والقيم ..

وضمّها الى صدره شفوقاً عطوفاً ..

وتوسلت اليه ألا يغيب عنها .. لأنها تخاف فقدانه ..

ثم امتدت يدها تداعب منديلاً في جيب سترته ..

طلبته منه للذكرى ! ..

كأن قلبها كان يتنبأ لها بفراق مديد ..

وعادت مع زهرته ومنديله ! ..

إنه منديله !

قطعة منه .. فيه عبق لمساته .. فيه لفح أنفاسه .. ألم يعش في ثنايا صدره ؟

ويتنسم عبيره .. فكأنه إذاً يعيش معها في تلك الليالي ولو لم تره ! ..

وأتاها الصيف بأحداث قاسية ..

لقد فوجئت بمرض زوجها ..

واشتدت وطأته حين أخذت الحمى تعذّبه .. والخطر يحيق به .. والهذيان أخذ يلازمه .. إذ كان يذكر في هذيانه أيّ شيء .. إلا هي ..

كأنها قطعة جامدة كذاك السرير الممدّد عليه ..

وبعد مرور أسابيع على مرضه .. خطفه منها الموت ..

وأصبحت وحيدة !..

أواه !! ..

كم تحمل هذه الكلمة بين ثناياها من فراغ قاتل ..

وعادت رجاء الى بيت أهلها مع ابنتها ..

ومرت عليها الأيام في عذاب .. وشقاء .. والزمان ساخر !..

لا ينعم عليها بشيء من الاستقرار والراحة ..

وصدق ظنها .. حين رأت الأيام تمر ووحيد بعيد ..

غاب عنها فجأة الى فتاة أخرى ! .. كانت الشفاه تتهامس عنه ، وعن فتاته في الدرب .. في المجتمعات .. أينما اتجهت ..

أخشي عليها من حبها .. كما كان يقول ؟ ..

وما أسخف ما ادعى ! ..

كان في يوم مضى يخاف على يديها من الأشواك .. فكيف به وقد خلفها منهوكة .. محطمة ..

* * *

كانت رجاء مع أخيها وجماعة من أصدقائهما حين رأته ..

إنه « وحيد » .. في نفس المكان .. وهو ينظر اليها .. كما نظر اليها في الماضي ..

حين كانت مرة تراقص زوجها ..

رأته بجانبه فتاة تنظر اليه بعبادة .. وولّه ..

وهو ؟ ! ..

يدور برأسه يبحث عمّن هي طعمه اليوم ! ..

ورآها ..

ورأت عينين تحدقان فيها ..

لكنها تجاهلته .. وأدارت وجهها عن ذكرى ماضية ..

عن حفنة من الأيام كانت مخدوعة بها ..

لن تعاود الكرّة .. ولن تثق في إنسان ما ، بعد غدر « وحيد ».

وقامت رجاء تغادر المكان وهي تغمغم :

مسكينة تلك الفتاة التي بجانبه .. إني أرثي لها .. وأرى فيها مرآة نفسي المعذبة ..

* * *

الفهرس

	صفحة
ذاكر يا تُرى	٥
يا ليل	٦٥
هذا عامك العاشر	٧٣
تُراه يحنّ يوماً	٨١
وريقات في الخريف	٩٣
ذكريات منثورة	١٠٣
بدون غد	١١٣
ضائعة	١٢١
قدر	١٢٩
عبير ذكرى	١٣٩
ناقمة	١٤٧
حنين	١٥٧
انتظار	١٧١
لن أنسى	١٨١

المطبعة الهاشمية بدمشق

منشورات دار الثقافة بدمشق

٢٠٩

الثمن : ليرتان سوريتان

893.7N179
P5

09944575

FEB 8 1965

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58876898
893.7N179 P5 Dhakir ya tara,